الدكتور
صباح عبيد دراز
أستاذ البلاغة والنقد بجامعة الأزهر

التشبيه

وسماته البلاغية



التشبيه
وسماته البلاغية
الدكتور صباح عبيد دراز
الطبعة الأولى ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية -
عابدين - القاهرة
١٢٠ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٢٠١٥/٢٨٥٤
الترقيم الدولي : I.S.B.N.
978-977-225-411-8



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

دراز، صباح عبيد .
التشبيه وسماته البلاغية / صباح عبيد دراز .-
القاهرة ، مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع ، ٢٠١٥
١٢٠ صفحة ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٨ ٤١١ ٢٢٥ ٩٧٧ ٩٧٨

١- البلاغة العربية
أ- العنوان

٤١٤



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين حمد الشاكرين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه .

وبعد

فهذه دراسات تدور حول أسلوب التشبيه واستجلاء صوره وقد جاءت في مبحثين تناول الأول مسائله ، وتحرير قضاياه ، وتحليل صوره .

وتناول الثاني التشبيه القرآني مستشرفًا شيئًا من سماته وخصائصه العالية .

ونسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم وأن ينفع به طلاب العلم . والله المستعان والحمد لله أولاً وآخرًا

أستاذ دكتور

صبّاح عبيد دراز

البيـان

من غرائب اللغة العربية كما يقول العقاد : أن لكثير من ألفاظها دلالات متقاربة أو مختلفة ، اكتسبتها على مر الزمان ، وتبقى هذه المدلالوت حقيقة وضَعْية أو اصطلاحية أو مجازية ، جنبا إلى جنب في الاستعمال اليومي العلمي أو الأدبي دون لبس أو اختلاط ، ومن هذه الألفاظ «البيان» فهناك دلالة لغوية للبيان بمعنى الظهورُ والوضوحُ ، ودلالة ثانية بمعنى الفصل والبُعد ، وقد زعم ابن فارس أنَّ الباءَ والياءَ والنونَ أصلٌ واحدٌ ، وهو بُعْدُ الشيء وانكشافُه يقال بَانَ يَبِيْنُ إذا بَعُدَ ، وبَانَ الشَّيءُ إذا اتَّضَحَ وانكشف «المقاييس». وأدقُّ منه قولُ الراغب : «يقال بان كذا أي انفصل وظهر ما كان مستتراً منه ، ولما اعتبر فيه معنى الانفصال والظهورَ استعمل في كل واحد منفردًا فقيل للبئر البعيدة القعر تبُون» لبُعد ما بين الشفير والقعر ، لانفصال حبلها من يد صاحبها وبان الصبحُ ظهر . «المفردات» وجاء في الأساس نخلة بأُبنة ، وقد تلمح البعد والظهور معًا ويمكن أن يكون هذا أصل الدلالة ثم حدث تطور دلالي وانفصال في الاستعمال بعد ذلك كما ألمح الراغب .

فالبيان بمعنى الظهور والكشف والوضوح هو ما يعنينا ، وهذه الدلالة العامة جعلت الجاحظ يريد به في بعض استعمالاته ـ ما هو أعم من النطق والكلام كالإشارة والخط والعقد ؛ لأن الكلمة علاقة أو دال أو رمز وكذلك ما عداها ، وقد احتفى المحدثون بكلام الجاحظ ، بينما احتشد عبد القاهر لدفع هذه الدلالة العامة إذ البيانُ المُعْتَبَرُ الذي به مَنَّ اللهُ على الإنسان هو الكلام المعبِّرَ عن ذاتِ المتكلم ، المؤثر في المخاطب ، وهو الأداء اللغوي .

وقد يرقى البيان ليراد به التعبير الأدبي الخاص الذي تتوفر فيه الكيفيات البلاغية الراقية[1] بمعنى أنه إفصاح ذكي مؤثر ، ومن عجب أن تأتي هذه الدلالات في استعمالات القرآن للبيان ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ ، وقوله سبحانه ﴿ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (لقمان:١١) ، وبالمعنى العام وهو الوضوح والظهور ، ومن المعنى الخاص قوله تعالى ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾ أي إفصاح مؤثر ذكي ، وعَيَّر القرآن بعض المشركين بالعِيِّ فقال الله : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ لما في اللَّسَن والفصاحة من قدرة على الإبانة والكشف ، وحين يقصد القرآن الكريم إلى التأثر وهز الوجدان والتعبير القوي يعبر بالإبلاغ والتبليغ والصَّدْع بالبيان .

قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ بمعنى إيصال البلاغ إلى الناس ليؤثر فيهم ، وقال تعالى ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أي بلِّغ القرآن المأمور به ؛ ليؤثر في النفوس تأثيرًا قويًا ، ويغيرها تغييرًا عنيفًا لا تعود معه إلى حالتها الأولى ، كما تتصدع الأحجار وتتناثر ، وقد يبلغ التأثير مدى يتجاوز ما يحلم به المتشدقون بالنظريات الحديثة البعيدون عن عالم القرآن ، قال تعالى ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ فالخاشعون تهتز قلوبهم في اضطراب خاشع ، وترتعد أجسادهم من جلال القرآن ، وتهفو أرواحهم إلى آفاق النور ، وهذا شيء فوق التأثير والإيضاح ، وقريبٌ من الدلالة الخاصة للبيان ، بمعنى القول البليغ المؤثر ، قولُ الرسول ﷺ « إنَّ من البيان لَسِحْراً» والجاحظ الذي جاء عنده مصطلح البيان بمستويات مختلفة يقصد بعنوان كتابه «البيان والتبيين» هذا المعنى . وقد ظل مفهومُ البيان قريبًا من

---

(١) التفكير البلاغي عند العرب : حمادي صمود .

البلاغة والبراعة والفصاحة عند علماء النقد والبلاغة والإعجاز ، فهي مفهومات عامة تعني الأدب المؤثِّر والقول البليغ . قال عبد القاهر « إنك لا ترى علمًا هو أرسخُ أصلاً وأبسقِ فَرْعًا ، وأحلى جنى ، وأعذبُ وِرْداً ، وأكرمُ نِتاجًا ، وأنورُ سراجاً ، من علم البيان ، الذي لولاه لم تر لساناً يَحُوكُ الوَشْيَ ، ويصوغ الحلى ، ويلفظ الدُّرَّ ، وينفُثُ السحر ، ويَقْرِي الشَّهْدَ ، ويُريكَ بدائعَ من الزَّهْرِ ، ويَجْنِيكَ الحُلْوَ اليانعَ من الثمر ، والذي لولا تحَفِّيه بالعلوم ، وتصوُّرُه إياها ، لبقيت كامِنةً مستورةً [1]، كما ذكر في مقدمة أسرار البلاغة ، جـ ٤ أثره في تجلية المعارف ، وتصوير الخواطرِ والأفكارِ وثمارِ العقل وودائع القلوب وبدائع الصف .

وقد احتشد لاستكشاف أسرار البيان ورصد تأثيره وطبيعته وتصرفاته علماء كبار قدموا وفراً من المفاهيم البلاغية التي تتكئ على صائب العقل وصادق العاطفة وجمال التصوير وبراعة التخييل . انتظمتها نظرية النظم التي استوت عند الإمام عبد القاهر في القرن الخامس الهجري فوضع نظرية المعاني ، ونظرية البيان التي استقلت كل منهما ، وأخذ البيان عند الزمخشري ومن بعده اتجاهًا باقيًا ، هو التشبيه والمجاز والكناية .

وفي العصر الحديث ظل مصطلح البيان فاعلاً عند البلاغيين ، بينما يوشك أن يختفي عند النقاد المعاصرين ؛ استغناء عنه بمصطلح الصورة والتصوير ، وقد حاول بعض النقاد جاهدين إحلال المذاهب النقدية محل التراث البلاغي العربي ، ولأن المدارس النقدية غريبة تمثل إفرازًا وانعكاسًا لمجتمعات غربية لاهثة رأينا المذاهب تجري متلاحقة فكانت الرمزية والوجودية والسريالية ، والآن الحداثة وما بعد الحداثة ، ومنها البنيوية والأسلوبية ، وكلها تعتمد التمرد على التراث والعقل ، واستلهام اللاوعي ، وتوظيف الرمز والحلم والأسطورة ،

---

(١) من مقدمة دلائل الإعجاز .

وتحطيم العلاقات بين الدال والمدلول ، مما يجعل القارئ يتيه في بيداء من الغموض المكثف[1] ، وقد أخذ أكثر من يكتب شعرًا عربيًّا بهذه المذاهب في تقليد واتباع دون تثقيف أو وعي ، فتوارت خصائصهم الذاتية وفوارقهم النفسية ، وأثَّرَ ذلك على الحركة الشعرية ، فأخذت القصة مكانة الشعر ، وأصبحت الفن الأول ، ثم ظهر على الساحة الآن ما يسمى القصيدة النثرية ، ولها كُهَّانُها وسَدَنَتُها ، وهناك عقلاء شعراء يكتبون ما يمتع ويؤثر ، ولكن أصواتهم لا تصل إلى أحد ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

التعقيد المعنوي والبيان :

عرفت أن مفهوم التعقيد المعنوي : هو كون الكلام خفي الدلالة على المعنى المراد لخلل في انتقال الذهن من المعنى المراد أو من المعنى الأول للتراكيب إلى المعنى الثاني وهو الغرض كالشجاعة في قولك زيد أسد . بمعنى أن العلاقة بين المعنى التشبيهي أو الكنائي أو المجازي وبين الغرض من الكلام غير صائبة ولا قريبة عقلا أو عُرفًا أو نفسًا أو وْضعًا ، فجمود العين هو عدم إدرار الدمع وقت الحاجة إليه في الحزن كقول الخنساء :

أعَيْنَـيَّ جُـودَا ولا تَجْمُـدَا ... ألا تَبْكِيَـانِ لِصَخْرِ النَّـدَى

لكن عباس بن الأحنف عبَّر بجمود العين عن عدم الدمع وقت الفرح والسرور في قوله :

سَأطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُـوا ... وتسكُبُ عيناي الدُّموعَ لِتَجْمُـدَا

وقول أبي تمام :

من الهِيفِ لو أنَّ الخَلاخِلَ صُيِّرَتْ ... لها وُشُحاً جَالَتْ عليها الخَلاخِـلُ

فهو يريد وصفها بالهَيَف ودقة الخصر ، فصيرها بشعره قميئة شائهة ، ولذا فإن علم البيان يتيح للأديب مجالات مختلفة ومعارض شتى ليختار بدقة تراكيبه

---

(١) راجع : المرايا المحدبة ، والمرايا المقعرة ، دكتور عبد العزيز حمودة .

، موافقة لمعانية النفسية ، المرتبة ترتيبًا عقليًا ، بل إن عالم الإبداع والتصوير حين يقتنص الشاعر فرائده بملكاته المصورة من العوالم المنظورة وغير المنظورة فكرا ثاقبًا أو عاطفة صادقة أو خيالاً مجنحا إنما هو اكتشاف كل طريف ليثرى المعرفة ويحقق الإمتاع والتأثير ومن هنا قالوا : «علم البيان هو إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال» ومعنى ذلك أن التمرس بالبيان قراءة في روائعه وإبداعًا لعوالمه وتذوقا لثماره يجعل البياني ذا موهبة راسخة أو ملكة نفسية ، بحيث تكون أصول العلم مستكينة في أعماقه يُمكن بكل ذلك أن يعبر عن إحساسه وتجاربه أو كل معنى يريده في تراكيب مفتاوتة في الدلالة على الأغراض أو ما يسمى بالمعنى المراد . وهي تراكيب تتفاوت في البيان والإيضاح وقد يكون التعبير غامضًا شفافا مثيرا للفكر والخيال يتأمله على مهل ولكنه يوصل إلى مراد الشاعر من تصويره على نحو واضح يرضى ويريح دون إجهاد للفكر أو حجب لمعنى أو لشعور ، فهذا أمر محبوب مطلوب يجعل الأسلوب ثريا خصبا ، قال عبد القاهر عن التعقيد والغموض «والمُعَقَّدُ من الشعرِ والكلامِ لم يُذَمَّ لأنه مما تقعُ حاجةٌ فيه إلى الفِكْرِ على الجُمْلَةِ (يريد أن الذم ليس بسبب مطلق التفكير فربما كان أمرًا لا بد منه) بل لأن صاحبه يُعْثِرُ فكرَك في مُتَصَرَّفه] (تصريفه) ويشيك طريقك إلى المعنى ويوعر مذهبك نحوه ، بل ربما قَسَّمَ فكرك ، وشَعَّبَ ظَنَّك حتى لا تدري : من أين تتوصَّلُ وكيف تَطْلبُ .

وأما المُلَخَّصُ (الكلام الدقيق) فيفتحُ لفكرتك الطريقَ المستوى ويُمَهِّدُه ، وإن كان فيه تعاطُفٌ (أي تعمق) أقام عليه المنارَ وأوقدَ عليه الأنوارَ (أي أقام قرائن ودلائل مفهمة) حتى تَسْلُكَهُ سُلُوكَ المستبين لوِجْهَته ، وتَقْطَعُه قَطْعَ

الوَاثِقِ بالنُّجحِ في طَلَبِتِهِ ، فَتَرِدَ الشريعةَ زرقاءَ ، والرَّوضَةَ غَنَّاءَ فتنالَ الرِّىَ ، وتَقْطَفَ الزَّهْرَ الجَنِيَّ)[1].

فالشرط تفاوت التراكيب ، ومفهوم هذا أن اللغة العربية غنية ثرية وأنَّ طرائق التعبير عديدة جمة ، وأنه يمكن بأي طريق بياني كالتشبيه أو المجاز أو الكناية أن يُعبِّر الأديب عن معنى واحد هو الغرض كالكرم والعلم بأساليب منوعة غير محصورة تتفاوت وضوحًا وبيانا وعمقا وقربا كالحلى والتصاوير في تعددها وإبهارها حسب المقامات ، ومن المتعالم أن الغرض قد يتفق لكن النظوم والتعابير مختلفة في الصياغة حسب المقام أو حال الأدب وإحساسه وتعمق المعنى وحسن تصويره وتمكنه من أدواته .

وأنت تجد في معنًى كالكرمِ . وهو خلق إنساني عربي يُمْتَدَحُ به سيلا من أطايب الكلام ، تجتزئ قدرًا منها بهذه الآيات من الشعر العربي :

هو البَحْرُ مِن أيِّ النَّواحِي أَتَيْتَهُ ... فلُجَّتُهُ المَعْرُوفُ والجُود سَاحِلُهُ

كَالبَحْرِ يَقْذِفُ لِلْقَرِيبِ جَوَاهِرًا ... جُودا ويَبْعَثُ للبعيد سَحَائِبَا

أَعْدَى الزَّمَانَ سَخَاؤُهُ فَسَخَا بِهِ ... وَلَقَدْ يَكُونُ بِهِ الزَّمَانُ بَخِيلا

وَأَقْبَلَ يَمْشِي فِي البِسَاطِ فَمَا دَرَى ... إلى البَحْرِ يَمْشِي أَمْ إلى البَدْرِ يَرْتَقِي

أَمَطْلَعَ الشَّمْسِ تَبْغِي أَنْ تَؤُمَّ بِنَا ... فَقلتُ كَلا ولكِنْ مَطْلَعَ الجُود

فَمَا جَازَهُ جَودٌ وَلا حَلَّ دُونَهُ ... وَلَكِنْ يَسِيرُ الجُودُ حَيْثُ يَسِيرُ

فالممدوح وهو دائمًا قدوة في الكرم ، بحر له لجة وله ساحل هما المعروف والجود وهو البحر يَعُمُّ خيرُه القريب والبعيد وقد سخا به الزمان وهو أسخى منه ، والبيت عابه بعض القدماء ، وسيف الدولة في البيت الرابع لا يختلف عن البحر والبدر فلا يمكن التفريق وهو شمس يشرق بالجود أو جود يطلع كالشمس فهو منبعه والجود في ركابه لا ينفك عنه فهو جواد كريم .

---

(١) أسرار البلاغة ، تحقيق محمود شاكر ص ١٤.

أما التعريف السابق للبيان فقد نقده «السُّبْكَيُّ» ذلك أن تفاوت الأساليب في غرضٍ واحد ومعنى واحدٍ لا يقتصر على البيان بل يتعداه إلى علم المعاني أيضًا فالمجاز العقلي والحقيقة العقلية في نحو رضى زيد عيشته، وعيشة راضية طريقان للتعبير والإيجاز والإطناب كذلك، ومحمد قائم وإن محمدًا قائم وإن محمدًا لقائم، فيها تفاوت مع أن الغرض واحد وهو كالتفاوت بين زيد أسد وقابلت أسدًا، ولذلك وغيره ارتضى سعد الدين التفتازاني أن يقال «علم البيان علم يبحَثُ فيه عن التشبيه والمجاز والكناية»[1].

* * *

(١) راجع: شروح التلخيص ٣/٢٦١ والمطول ٣١٠.

التشبيه

التشبيه والتمثيل قريبا الدلالة في اللغة ، وعند بعض البلاغيين كابن الأثير والزمخشري ، مختلفان بلاغة عند أكثر البلاغيين .

« والتشبيه هو إلحاق أمر بآخر في معنى مشترك بينهما بالكاف ونحوه» ويتضح من التعريف أن أركانه أربعة : المشبه والمشبه به ، وهما طرفا التشبيه ، ووجه الشبه وأداة التشبيه ، وهناك عناصر لا بد منها لاكتمال الصياغة عند البليغ لما له من صفات عالية في التعبير واللغة ، وهي المادة الخام وهي تتبع للعالم المحسوس بما له من آماد وآفاق لا تُحصر ، وعالم المعقول والخيال والنفس ثم القدرة على تمثل ذلك ، واكتشاف علاقاته ، والإبحار في عالم بديع يقدم جمالا ومعرفة وإثارة وإمتاعًا . ذلك أن للتشبيه وهو أسلوب بياني دوراً خطيراً في المعاني والأغراض . وقد أفاض البلاغيون في بيان ثمرته وآثاره ، فقد يفيد الإيضاح والتقرير والإيجاز والتوكيد والمبالغة ، مع الإقناع والإمتاع وكشف الخبايا ، وفهم المجهول وإثارة الطاقات الإنسانية ، وعمله في الأسلوب في التأليف بين المختلفين وبث الوحدة في الصور المتفرقة ، وصب المعاني المتعلقة ، والمخيلة والمتوهمة في قوالب الشخوص الحية والذوات المتحركة ، وليس هدف التشبيه عقد صلة بين متنافرين أو مجرد رسم آلي كالصور الشخصية ، بل إن فضله أن يزيدنا إحساسًا بالصورة ، من صلة صادقة مؤثرة في النفس ، كما أنه وسيلة إلى نقل أحاسيس تمزج الصورة بالعاطفة مع ذكاء كبير كما فهمه العربي القديم ، وليست عملية التشبيه يسيرة ؛ ذلك أن الأديب يلجأ إلى مكنون معرفته وصوره المختزنة التي تكوّن خياله ، ثم يقوم بعملية تنسيق فني تراعي أوجه التقارب ، وإدراك خافي العلاقات ، واختيار ما تحسن من صور تجلو المعاني ، وتنقل الشعور إلى النفس حيا ممتازا ، وكلما زادت

المعرفة بالكون وخفاياه كلما برع التشبيه ؛ ولذا تجد التشبيه القرآني في القمة لأن مُنَزِّلَهُ عليمٌ خبير ، ثم التشبيه النبوي لصفاء الفطرة المحمدية ، وذكاء العقل وإلهام النبوة والتأثر بالقرآن .

ثم يختلف منازع شتى باختلاف البيئات والثقافات والانفعالات ؛ ومن صدق القول : لا يتفق تشبيهان ولا قولان كملامح الوجوه وشيات الأجسام ، وأحسنها ما كان صادق الحس قوي الشعور مغذيا العقل والوجدان .

والوجه هو المعنى الذي قُصِد اشتراك الطرفين فيه ، فلا يكون ذاتا ولا عرضا عاما كالإنسانية والوجود والجسمية ؛ إذا العموم يسقط الفائدة بل لا بد أن يكون معنى خاصًّا ، ومقتضى الإلحاق أن يكون الوجه في المشبه به أقوى ؛ إذ التشبيه إلحاقٌ وقياس ، إلا لفرض بلاغي كالتخيل وعكس التشبيه فالمقام هو الحَكَمُ ، بيد أن هذا الوجه يجب أن يوجد في الطرفين تحقيقا أو تخيلا ، ومعلوم أنه لا بد أن يوجد قدر من التغاير بين الطرفين ، إذ يُشَبَّهُ الشيءُ نفسه ، كما أنه لا بد من وجود صلة ولو متوهمة أو متخيلة تصحح الإلحاق والمتشابهة .

* * *

تقسيمات التشبيه

وجد البلاغيون ـ على مدى القرون ـ أساليب من التشبيه لا يحصيها العد ، وكان لا بد من وضع ضوابط وتصنيفات تجمع النظائر والأشباه ، وانتهى الإمام عبد القاهر ومَنْ بعدَه إلى وضع مقاييس عامة يتفرع على أساسها التشبيه إلى أنواعه . وهي الحسِّية والعقلية ، والإفراد والتركيب والتعدد ، والجمال والتفصيل ، والندرة والغرابة ، والتحقيق في الوجه والتخييل ، والتقسيمات قلت أو كثرت لا تخرج عن المسائل الخمس ، أما كون التشبيه صحيحًا مقبولاً أو ثقيلاً مرفوضًا ، أو رائعًا مثيرًا فلا بد أن يكون صادق التعبير غزير الإيحاء مثيرًا لمكامن الطاقات ، كاشفا من أسرار الكون والحياة ، مضيفًا جديدًا إلى الرصيد الإنساني ، وهذا يحتاج من الشاعر أو الغائر عقلا واعيا ، وقلبا مرهفًا ، وخيالا مبدعا وثقافة عميقة وموهبة متمكنة ، وفوق الكلام البشري كلامُ الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

الحسى والعقلي

التشبيه الحسي أو الشبه به هو المدرك هو أو مادته التي يتركب منها بإحدى الحواس الخمس الظاهرة ، والحواس وسيلة الاتصال بالعالم المسخر للإنسان ، والعقليُّ وما يدركه العقل من المعاني : والواقع أن مصطلح الحسى والعقلي يتسم بالعموم والاتساع ، ذلك أن المبصرات والمسموعات والمذوقات والملموسات والمشمومات مما خلق الله وأبدع في عوالم السماء والأرض والإنسان والحيوان والطير والنبات وما خلق الله في البر والبحر وتنوعها ألوانًا وأشكالاً وأحجامًا ولمسًا وشمًّا لم يحط به العلم إلى اليوم ، بله ألوانها المتداخلة وأشكالها المتباينة وطبائعها المتميزة بالإضافة إلى ما أبدع الإنسان ، وهو أكرم ما في خلق الله ، وشكَّل في عالم محسوس من كل باهر ساحر ،

ويكفي أن نستعرض آيات الاعتبار في الذكر الحكيم، لتجد العجب العاجب، كل ذلك سخر للإنسان الذي أمده الله بحواس معجزة ومواهب وملكات، فهناك العقل بجهات إدراكه من فهم وعلم، وتفكر وتدبر، واكتشاف واستنباط، والقلب واللب والفؤاد مما يخص الوجدان، ثم الخيال وبخاصة المبدع الوثاب، والروح في تطلعاتها العالية، ثم القدرة على تجريد المعاني وتمثلها مع التذكر وتداعي الأفكار، كل ذلك يجعل الإنسان كأنه يعيش في عالم مسحور.

وهذه شواهد لتشبيهات طرفاها حسيان أو عقليان أو مختلفان مفردان أو مركبان قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾، ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴾، ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾، ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾، ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ والمشبه به مركب خيالي.

ومن الشعر قول امرئ القيس:

إذا قامَتا تضوَّعَ المسك.. منهُمَا نَسيم الصَّبا جَاءَتْ بِريَّا القَرَنْفُلِ

وقال ابن خفاجة في حديث الجبل عن نفسه:

فَما خفق أَيْكِي غير رَجْفَةِ أَضْلُعٍ وَلا نَوْحُ وَرْقِي غير صَرْخَةِ نادِبِ

وقال الصَّنوبَري عن غدير ماء «بركة»:

كَأَنَّ فِي غُدْرَانِهَا حَوَاجِهَا ظَلَّتْ تُمَطّ

وقال مسلم بن الوليد:

أذكى من المسك أنفاسا، وبهجتُها أرقُّ ديباجةً من رقة النفسِ

تَجري مَحَبَّتُها في قلبِ عاشِقِهَا جَرْىَ السُّلافَةِ في أعضاءِ مُنْتَكِسِ

وقال الصاحب بن عباد يهدي عطرا لصديقه :

أهديتُ عطرًا مثلَ طِيبِ ثَنائِهِ فَكَأَنَّمَا أهْدِي لَهُ أخلاقَهُ

وقال العَلَوِيُّ الأصفهانيُّ :

كأنَّ انتضاءَ البدرِ مِنْ تَحْتِ غَيْمةٍ نَجَاءٌ من البأساءِ بعدَ وُقُوعِ

وقال شوقي :

والجَهْلُ موتٌ فإنْ اوتيتَ مُعجزةً فابعثْ من الجهلِ أو فابعث من الرجم

وقال ذو الرُّمَّةِ :

لها بَشَرٌ مثلَ الحريرِ وَمنطِقٌ رَخِيمُ الحَوَاشِ لا هُرَاءٌ ولا نَزْرُ

ويلحق بالحسى الخيالي وهو مركب لا وجود لهيئته في الواقع وإن كانت أجزاؤه محسوسة موجودة كقول الصنوبري :

وكأنَّ مُحْمَرَّ الشَّقِيقِ إذَا تَصَوَّبَ أو تَصَعَّدْ

أعْلامُ يَاقُوتٍ نُشِرْ نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

أما العقلي فيلحق به الأمور الوجدانية كالحب والبغض والوهمى وهو ما لا وجود له في الواقع ولو وجد لأُدْرِكَ بالحواس كالغول والسعلاة والعنقاء . قال أمرؤ القيس :

أَيَقْتُلُنِي والمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

والتشبيه داخل في النظم لا يخرج عن سياقه : من اختيار للكلمات ، وملائمة للسياق والمقام ، وفي التشبيه القرآني تجد كل أسلوب مناسب لسياقه وغرضه وطبيعة السورة جرسًا ، ولفظًا ، وغرضًا.

والوَجْهُ هو المعنى الذي قُصِدَ اشتراكُ الطرفين فيه ، فلا يكون ذاتًا ولا عَرَضًا عاما كالجسمية والإنسانية والوجود ؛ إذ العموم يُسْقِطُ الفائدة ، ومقتضى الإلحاق أن يكون الوجه في المشبه به أقوى ، إلا لغرض المبالغة

١٦

كعكس التشبيه أو التخييل ، فالمقام هو الحَكَمُ . بيد أن هذا الوجه يجب أن يُوجد في الطرفين تحقيقا أو تخييلاً . وانظر إلى هذه النصوص :

قال تعالى : ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ ، ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ ، ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ ، ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ ، ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ قال النبي الكريم : (أَمَّنِي جبريلُ عند البيت ، فصلى الظهر في الأولى حين كان الفيء مثل الشراك)[1]. وقال : (رصوا صفوفكم وقاربوا بينها وحاذوا بين الأعناق فوالذي نفسي بيده إني لأرى الشياطين تدخل من خَلَلِ الصفوف كأنها الحذف)[2].

وقال عَدِيُّ بنُ الرِّقَاع :

تُزْجِي أَغَن كَأَنَّ إِبْـرَةَ رَوْقِـهِ ... قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا

وقال المَعَرِّيُّ :

هَرَبَ النومُ من جُفُوني فيها ... هَرَبَ النَّومِ عن فُؤَادِ الجَبَانِ

والوجه في هذه النصوص متحقق في الطرفين ، حسيا كالضخامة والبُطء والطول المظلم الرفيع ، والشكل مع السواد في الحذف ، والسواد الدقيق متطرفا متصلا بلون مخالف في إبرة الروق ، أو عقليا كالتدبير والضلال وعدم الانتفاع والزوال في بيت المعري ، وهذا على وجه الإجمال لا في التشبيه فيما سبق يُومِئ إلى وجوه أخرى مشتركة مقصودة خصبة موحية .

ولقد ذكرتُكِ والظَّلامُ كَأَنَّهُ ... يومُ النَّوى وفؤادُ مَنْ لَم يَعْشَقِ

كأنَّ ابيضاضُ البدر من تحت غَيْمة ... نَجَاءٌ من البأساء بعد وقوعِ

رُبَّ ليلٍ كأنه أَمَلِي فيكَ ... وقد رُحْتُ عنك بالحرمان

كم وجوهٍ مثلِ النهارِ ضياءً ... لنفوسٍ كالليلِ في الإظلام

---

(١) التاج الجامع للأصول للشيخ ناصف ١٤١/١ .

(٢) الحملان الصغيرة .

رُبَّ ليــلٍ قطعتُــه بِصُــدُودٍ   وفــراقٍ مــا كــان فيــه وَدَاعُ
مُوحِشٍ كالثقيلِ تَقْذى به العــ   ـينُ وتــأبى حديثَــهُ الأسمــاعُ
وكــأنَّ النجــومَ بــينَ رُجَــاهُ   سُــنَنٌ لاحَ بَيْــنَهُنَّ ابتــداعُ

والوجه هنا غير متقرر في أحد الطرفين بل هو مبني على التأويل والتخْييل وجعل غير المحقق محققا .

فيوم النوى والفراق يوصف بالسواد ، توسعا وتوهما ، يقال لمن فجعته نازلة : أسوَدَّ نهارُه وأظلمت الدنيا في عينيه ، والمحب يدي قسوة القلب ، والقلب القاسي ، يدعي له السواد ؛ ولذا تخيل الشاعر يوم الفراق وفؤاد الخالي أسودين ، بل جعلهما أعرف بالسواد ، وأشهر به ، وحقق به غرضه ، ووصف به شعوره .

وكذا وصف النجاة بالبياض ، والبأساء بالسواد ، والأمل بالطول ، حين قيد بالحرمان ووصف النفوس بالقتامة ، والظلال ، أما القطعة الأخيرة فتشبيه الليل بالثقيل في الكراهية محقق ، لكن تصوير النجوم مفرقة في جنبات الليل بهيئة السُّفَن بينها بدع في ظهور أشياء مشرقة في جوانب شيء مظلم ، على نحو من التجاوز في المشبه به ، فهو مما سبق بضرب من التخيل والتصوير والمبالغة والتوهم ملاءمة لحالات شعورية نفسية ولعلك تلحظ أن وجه الشبه هنا دائما حسي وأن أحد الطرفين عقلي غير محسوس .

وأنت تستطيع بدقة الفكر وعمق النظرة أن تصل إلى ما تصبو من العثور على وجه الشبه ، لكن ما رأيك في الأشعار الرَّمزية المُغرقة في رمزيتها وشدة غموضها تأثرًا بمذاهب غريبة ؟ إنك لا تصل ببساطة أو بتأمل إلى وجه الشبه لأنه نفسى خاص بالشاعر وحالته النفسية المركبة المعقدة ، يحطم حواجز اللغة ومدلولاتها كما في تبادل الحواس وتَرَاسُلها ، فالعين تسمع ، والأذن ترى ، وقدوم الليل له صوت بطيء ، وشعاع السراج ناعم كالنغم المنساب إلى الأذنين ، وسواء كان هذا في التشبيه ، أو الاستعارة ، أم احتشدت فيه أنغام

١٨

وعذاب ألفاظ مشعة ، فإن كثيرًا منه نابٍ على الذوق العربي ؛ ومن هنا فإن الشعر العربي المعاصر ، يعيش في كثير من جوانبه نكسة خطيرة ، وضياعا فريدا ، ونحمد الله أن الزمان طوى دعاة المذاهب الأوربية العربية عن الأذن العربية ، والساحة الآنَ في انتظار شوقي جديد ، يرد إلى الذوق العربي ، ما استلبه المتشاعرون والمستغربون .

التشبيه والتمثيل

لعل الإمام عبد القاهر أو من ميز تمييزا من واقع النصوص الأدبية بين التشبيه والتمثيل فالأول ، ما كان الوجه فيه أمرًا بيِّنًا بنفسه واضحًا في الطرفين لا يحتاج تأويلاً ولا تأمُّلاً للاشتراك في حقيقة الوصف لا في لازمه ، إما لأنه أمر حسي مفردًا ، أو مركبًا ، أو عقليٌّ غَرَزِيٌّ ؛ ذلك أن الغرائز والطباع وإن كانت عقلية كالشجاعة ، والجبن ، والذكاء ، والغباء ، إلا أنها حقائق ثابتة معلومة ، والشأن فيها الإفراد .

أما التمثيل فهو أن يتم الشبه بضَرْبٍ من التأويل وصرفٍ عن الظاهر ، للاشتراك في لازم الصفة ومقتضاها ، دون حقيقتها وذاتها ، وهذا مُحَقَّقٌ ، وفي الوصف العقلي غيرِ الغَرَزِيِّ ، مفردًا كان أم مركبًا ، واقتصر السكاكيُّ من التمثيل على المركب العقلي.

ووسَّع الخطيب الدائرة في ناحية ، فالتمثيل ما كان الوجه فيه مركبًا مطلقًا ، حسيًّا أو عقليًّا أو مشتركًا ؛ لأن التركيب في هيئة الوجه يحوج إلى إعمال فكر وفَضْلِ تَرَوٍّ ودقة نظرٍ ؛ ولذا كان رأيُ القَزْوِينِيِّ أَجْدَرَ بالاعتبار ، وتَبِعَهُ جمهورُ البلاغيين ؛ لأن كثيرًا من المركبات الحسية دقيقةٌ مثيرةٌ . وانظر هذه الروائع :
قال الله سبحانه : ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ وقال عن رسول الله ﷺ وصحبه ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ .

وقال ﷺ (مَثَلُ الرَّافِلَةِ في غيرِ أَهْلِهَا كَمَثَلِ ظُلْمَةِ يومِ القيامةِ لا نُورَ لَهَا) .

وقال صالحُ بنُ عبدِ القُدُّوسِ :

وَإِنَّ مَــنْ أَدَّبْتَــهُ فــي الصِّــبَا ... كَالعُودِ يُسْقَى المَاءَ فِــي غَرْسِــهْ

حَتَّــى تَــرَاهُ مُورِقًــا نَاضِــراً ... بَعْدَ الَّذِي أَبْصَــرْتَ مِــنْ يُبْسِــهْ

فالوجه في الأول : الهيئةُ الحاصلةُ من سرعةِ الزَّوالِ وانقراضِ النَّعِيمِ بعد الإقبالِ وعمومِ النَّفْعِ والاغترارِ به .

وفي الثاني : البيئةُ الحاصلةُ من ضَعْفٍ تتزايدُ قوَّتُه حتى يصيرَ إلى المَثَلِ في القوْةِ التى تُسْعِدُ الصديقَ وتُشْقِي العَدُوَّ . وفي الآيتين تجد المثل مُسْتَلَبًا من عالم الزرع المنظور ؛ قوةً في التشخيص ، وجمعًا بين النمو والحركة واللون والظلِ وشغل الحواس ، وفي الحديث صوَّر المرأة الغريبة تأخذ زينتَها وتَرْفُلُ في حُلِيِّها بلا حياءٍ ولا حِراسةٍ زارعةً الفتنَ والشرورَ في بشاعتها وسُوْء أثرها واستطارة شرِّها ، كهذه الظلمة الحالكة الموحشة الموصوفة بأنها في يوم رهيب يُتَلَمَّسُ فيه النورُ .

وفي بيت صالح تجد الوجه : التَّعَهُّدَ المُجْدِيَ والنفعَ المُتَيَقَّنَ الواصلَ إلى الكمال لوضعه موضِعَه ، ومصادفتِه وقتَه ، ويبدو تأثُّره بالقرآنَ والحديثَ ، مع البون الشديد ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ في هذه الشواهد البالغة .

قال امْرُؤُ القيس :

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَــامَ أَهْلُهَــا ... سُمُوَّ حُبَابِ المَاءِ حَالاً عَلَى حَــالِ

وقال بَشَّار :

كَأَنَّ مُثَارَ النَّقْعِ فَــوقَ رُؤُوسِــنَا ... وَأَسْيَافَنَا لَيْــلٌ تَهَــاوَى كَوَاكِبُــهْ

وقال آخرُ مُغِيراً على تشبيه بَشَّار :

كَأَنَّ دُخَانَ العُـودِ والنـدِ بَيْنَنَـا وَأَقْدَحَنَا لَيْـلٌ تَهَـاوَى كَوَاكِبُـهْ

والهيئة في بيت امرئ القيس : الصعود إلى أعلى في تَمَهُّلٍ ، وهي صورةٌ حركيةٌ مُعْجِبَةٌ أخذت في تصيدها بيتا . وتصوير الحركة في إبداع مطبوع لا ينقضي العَجَبُ منه لجماله .

وبيتُ بشار ومُقَلِّدِه : الوجه فيه تحرُّكُ أجسامٍ بِيْضٍ مستطيلةٍ في اضطرابٍ واختلالٍ في جوانبِ شيءٍ مظلمٍ ، وهذه الصورةُ التي اخترعتها مخيلة بشار غطت على النقد قديمًا وحديثًا ، إلا الدكتور مندور الذي قال : إن بشارا لم يَرَ الليلَ تتهاوى كواكبه ، ولا رآه حتى المبصرون ، فهو تشبيهٌ بعيدٌ ليست له في النفس صورةٌ ولا تجاوبٌ[1] . والحق أن هذه صورةٌ متخيلةٌ بديعةٌ ، وليس على الخيال من قيود ، ولعلك تلمح الاضطراب في البيت بعده ؛ إذ الأقداح ليس لها هذا الطولُ المتخيل لسقوط النجوم ، والتقليدُ العابثُ في البيت رُبَّمَا كان من أسباب قبوله . وانظر هاتين الصورتين :

قال أَبو فِراس :

وَالمَاءُ يَفْصِلُ بَـيْنَ زَهْـرِ الـ ـرَّوْضِ فِـي الشَّـطَّيْنِ فَصْـلا

كَبِسَـاطِ وَشْـيٍ جَـرَّدَتْ أَيْـدِي القُيُـونِ عَلَيْـهِ نَصْـلا

والقين : الحَدَّاد .

وقال ابنُ خَفَاجَةَ :

لله نـهـر سـال في بطحـاء أحلى ورودا من لمـى الحسناء

متعطـف مثـل السـوار كأنـه والزهـر يكنفـه مجـر سمـاء

فالوجه عند أبي فِراس هيئةٌ من وجوه شيء أبيض مستطيل حوله اخضرارٌ مع ألوان مختلفة ، وإذا كان الدكتور أحمد بدوي يرى فيها تناقضًا بين ما يثيره

---

(١) النقد المنهجي عند العرب للدكتور مندور ص ٨٧ .

السيف من رُعْبٍ وما يثيره الروضُ من مرحٍ وانطلاقٍ ومتعةٍ[1]، فلعل هذه الصورة مقبولة في القديم إذا كان مرأى السيف وهو يلازمهم نوماً ويقظة فيه أُلْفَةٌ على نحوِ ما شَبَّهَ عنترةُ :

فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لأنَّهَا لَمَعَتْ كَبَارِقِ ثَغْرِكِ المُتَبَسِّمِ

وهذا يؤكد ما نقول باختلاف التشبيه لاختلاف البيئة والعصر والأعراف والتكوين العقلي والثقافي لدى الشاعر أحيانًا ، بالإضافة إلى التشبيهات الإنسانية أو الكونية .

أمَّا صورةُ ابن خفاجة فهي مقبولة لوجود شيءٍ أبيضَ مستطيلٍ مُلْتَوٍ تُحيطُ به أجسام صِغَارٌ بيضاءُ على نحوٍ من التقاربُ والتسامح ، وقد تجدُ من حِسِّياتِ ابن المعتز ما يختلف حولَه النُّقادُ قَبُولاً أو رفضاً ، والمعروف أنَّ ابْنَ المعتز أشْهَرُ مَنْ كَثُرَ عنده التشبيهُ الحسي كقوله :

وَتَرَى البَرْقَ مُصْحَفَ قَارِ فَانْطِبَاقاً مَرَّةً وَانْفِتَاحَا
وَالشَّمْسُ كَالمِرْآة فِي كَفِّ الأَشَلِّ لَمَّا رَأيتُها بَدَتْ فَوقَ الجَبَلْ

فتوالِي الفتحِ والإطباق للمصحف الشريف مُتَخَيَّلٌ[2]، فيه هَذَرٌ وعبثٌ ومجونٌ وجهلٌ، يجب أن يُصَانَ عنه كلُّ مُقَدَّسٍ كما نَبَّهَ علماؤنا ـ رحمهم الله ـ، وكَفُّ الأَشَلِّ ـ كما لَمَحَ بهاءُ الدين السُّبْكِيّ قديمًا[3]، وأبناؤنا في الكلية حديثًا ـ لا تتماسك ولا تحمل شيئًا ، وأقربُ منه على نحوٍ من التخيُّل قولُ الآخر :

وَلاحَتِ الشَّمْسُ تَحْكِي عِنْدَ مَطْلَعِهَا مِرْآةَ تِبْرٍ بَدَتْ فِي كَفِّ مُرْتَعِشِ

وإن كان فيه خطأٌ في الاستعمال لأن ما يكون مرآةً للسبيكة المصبوبةُ لا التِّبْرُ المُفَتَّتُ جزئياتٍ . وقد يريد ما أصله من التِّبْرِ ثم تماسك بالصياغة والمهم ارتعاش الكف ، ولا يغرنك ثورة العَقَّاد ، رحمه الله ، على ابن المعتز

---

(١) «عبد القاهر الجرجاني» دكتور أحمد بدوي ص ٢٩٠ .

(٢) أسرار البلاغة ص ١٣٢ .

(٣) شروح التلخيص ٣٦٧/٣ وبغية الإيضاح ٢٧/٣ .

وشوقي من أصحاب التشبيه والتبصر الحسي ، مدعيًا أنها خاليةٌ من الشعور أولاً لتعصُّبه للرومانسية ولمدرسة الديوان ، وبُغْضًا لأمير الشعراء ، لأنها تثير في النفس مشاعر مختلفة كما نبه عديدٌ من كبار الباحثين ، ومما أخذه العقاد على ابن المعتز قولُه :

اُنْظُرْ إلى حُسْنِ هلالٍ بَدَا يَهْتِكُ مِنْ أنوارِه الحِنْدِسَا
كَمَنْجَلٍ صِيغَ مِنْ فِضَّةٍ يَحْصُدُ مِنْ زَهْرِ الدُّجَا نَرْجِسَا

وقول شوقي مقلِّدًا وقد خرج المتخيل مَخْرجَ الاستعارة :

تَطْلَعُ الشَّمْسُ حَيْثُ تَطْلُعُ صُبْحَا وتَنْحَنِي لِمِنْجَلِ الحَصَّادِ
تِلْكَ حَمْرَاءُ فِي السَّمَاءِ وَهَذَا أَعْوَجُ النَّصْلِ مِنْ مِرَاسِي الجِلادِ

قال العقاد : كأنَّ الموت لا يكونُ إلا حين يكون القمرُ هلالاً ، وهذا محال . وشوقي يتخيَّل صورةً ويعلِّلُ ولا يقرِّرُ حقائق.

وقول ابن المعتز عن الهلال :

اُنْظُرْ إِلَيْهِ كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ قَدْ أَثْقَلَتْهُ حُمُولَةٌ مِنْ عَنْبَرِ[1]

وقد صفق قدماءُ النقاد للبيت ، لا لأنهم كما يذكر الدكتور عز الدين إسماعيل[2] اهتموا بالتخيُّل العقلي لا النفسي ، وجعلوا من صدق التشبيه ما إذا عُكِسَ لم ينتقض ، بل لأنه أَحْسَنَ التصويرَ والتخيُّلَ ، ورسَمَ صورتين متقابلتين في البحر والسماء ، جامعاً بين حشد فيه الألوان والظلال وشذى العنبر وبهجة الفضة ولون الهلال الجميل في صفحة السماء ، وهناك من التشبيهات الرائعة من الحسيات المثيرة المتحركة المؤثرة كقول ابنِ الرُّومي :

إِنْ أَنْسَ لا أَنْسَ خَبَّازاً مَرَرْتُ بِهِ يَدْحُو الرُّقَاقَةَ دَحْوَ اللَّمْحِ بِالبَصَرِ
مَا بَيْنَ رُؤْيَتِهَا فِي كَفِّهِ كُرَةً وَبَيْنَ رُؤْيَتِهَا قَوْرَاءَ كَالقَمَرِ

---

(١) راجع العقاد ناقداً ، ٤٤٧ وما بعدها .

(٢) راجع الأسس الجمالية للدكتور عز الدين إسماعيل ١٨٠ .

إلاَّ بِمِقْدَارِ مَـا تَنْـدَاحُ دَائِـرَةٌ   فِي لُجَّةِ المَاءِ يُلْقَى فِيـهِ بِـالحَجَرِ

وإذًا لابُدَّ من صدق الإحساس والتخيّل والتصوير لخلجات النفس في كل تشبيهٍ صادقٍ ؛ لأنه حينئذ يكون جزءاً من الحياة وشيئًا من الذات عقلاً ووجدانًا . بل يزيد معرفة بالحياة والأحياء .

وقد لاحظت أن التمثيل قد يأتي في أعقاب المعاني فيُجَلِّيْهَا ، أو تخرُج هي في مَعْرَضِهِ وثوبه فيُحَسِّنُهَا ويُجَلِّيهَا ويؤكِّدها ويُقَوِّيها .

وليس معنى هذا أن النخيل هو المستأثر بالجمال والبراعة ، بل كذلك التشبيه إذا كان على شرطنا السابق ، وهذا وأكثر منه مما يحار فيه العقل ويعيا به الفحولُ تشبيهاتُ القرآن الكريم واقرأ : في المُعَذَّبين من قوم عاد :

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ .

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ .

وقال في نعيم المتقين :

﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ (الواقعة:٢٢،٢٣) .

﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ (الرحمن:٥٨).

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ (الإنسان:١٩) .

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ (الطور:٢٤) .

وقال ﷺ : « البِدْعَةُ شَرَكُ الشِّرْكِ »[1] . وقال : « الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ »[2].

وهي تشبيهات فقط وإن كانت تشع جمالاً وعطاءً لا يَنْفَد .

* * *

(١،٢) التاج الجامع للأصول ١/٦٤ .

التشبيه القريب والبعيد

عَرَفت أن القريب ما انتقل فيه من المشبه إلى المشبه به من غير تـدقيق نظـر لظهور الوجه ؛ ولذلك سببان :

١- أن يكون الوجه أمراً جُمْليًّا لا تفصيل فيه ، حِسِّيًّا كالألوان والأحجام والأشكال والأطوال ، أو عقليًّا كالغرائز والأخلاق ؛ ذلك أنَّ الجملةَ أسبقُ إلى النفس من التفصيل ، فهي ترى الأمرَ مجملاً ثم تدرك أبعادَه ، والناسُ يتفاوتون ذكاءً وخبرةً في إدراكِ التفاصيل ، أما الجُمَلُ فتستوي فيه الأقدامُ ، وهكذا حُكْمُ ما يُدْرَكُ بالعقل ، تسبق فيه الجمل إلى الذهن ، والتفاصيل تأتي عن الروية والإمعان .

قال الشاعر :

لَهَا بَشَرٌ مِثْلُ الحَرِيرِ وَمَنْطِقٌ ... رَخِيمُ الحَوَاشِي لا هُراءٌ ولا نَزْرُ

الوَجْهُ مِثْلُ الصُّبْحِ مُبْيَضٌّ ... وَالفَرْعُ مِثْلُ اللَّيْلِ مُسْوَدُّ

ضِدَّانِ لَمَّا اسْتَجْمَعَا حُسْنَا ... وَالضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ

وقول عَمْرو بنِ كُلْثُوم :

وَنَحْرٌ مِثْلُ ضَوْءِ البَدْرِ أَوْفَى ... بِأَسْعَدِه أُنَاسًا مُدْلجِيْنَا

ولاحَ ضَوْءُ هِلالٍ كَادَ يَفْضَحُنَا ... مِثْلُ القُلامَةِ إذْ قُدَّتْ مِنَ الظُّفُرِ

وإِذَا اهْتَزَّ لِلنَّدَى كَانَ بَحْرًا ... وَإِذَا اهْتَزَّ لِلْوَغَى كَانَ نَصْلاَ

وَإِذَا الأَرْضُ أَظْلَمَتْ كَانَ شَمْسًا ... وَإِذَا الأَرْضُ أَمْحَلَتْ كَانَ وَبْلا

ذَاتُ حُسْنٍ لَوِ اسْتَزَادَتْ مِنَ الحُسْنِ إِلَيْهِ لَمَا أَصَابَتْ مَزِيدَا

فَهِيَ كَالْمِسْ بَهْجَةً ، والقَضِيبِ اللَّدْنِ قَدًّا وَالرِّئْمِ طَرْفاً وَجِيدَا

وَأَدْهَمُ كَالغُرَابِ سَوَادَ لَوْنٍ ... يَطِيرُ مَعَ الرِّيَاحِ وَلا جُنَاحُ

مَا قُوبِلَتْ عَيْنَاهُ إلا ظننا ... تَحْتَ الدُّجَى نار الفريق حلولا

والتشبيهات واضحة لك ؛ لأن الشاعر ربط بين الطرفين بعَلاقة فيها إجمالٌ وقُرب ووضوحٌ ، كشدة النعومة ، والبياض والسواد والإشراق ، والتقوس في الهلال ، والاستقامة في القد ، والجمال في طول العنق ، وسعة العين ، والحُمْرَة المجملة في عينِ الأسد ، والسواد في الأدهم ، والحُمْرَة والتوقُّد ، وهذه حسياتٌ تُدْرَكُ بإحدى الحواس على الجملة دون تفصيل ، أو الكرم والنفاذ ، والإغاثة في المعنويات ، فلا يثير ذلك طاقات النفس وإن لم تعدم الجمال .

٢- الثاني : أن يكون في الوجه تفصيل قليل ، ولكنه قريب لتكرار المشبه به على الحواس ، وغلبة حضور المشبه به في النفس إمَّا مطلقًا ، وإمَّا عند استحضار المشبه ، لقوة التناسب بينهما كقول الشاعر :

وَكَأَنَّ الشَّمْسَ الُمنِيرَةَ دِيْنَا ... رٌ جَلَتْهُ طَرَائِقُ الحَدَّادِ

في الاستدارة والإشراق ، وقول عنترة في رَوْض :

جَادَتْ عليه كُلُّ عَيْنٍ ثَرَّةٍ ... فَتَرَكْنَ كُلَّ قَرَارَةٍ كَالدِّرْهَمِ

شبه قرارة الأرض وهي الحفرة الصغيرة مليئة بالماء في الاستدارة والصُّفْرَة بالدرهم . وقال طَرَفَةٌ :

أَنَا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّذي تَعْرِفُونَهُ ... خَشاشٌ كَراسِ الحَيَّةِ الُمتَوَقِّدِ

شبه رأسه في صغرها وما تحويه من أذى برأس الحية . وقال ابنُ الرُّومي :

يَا شَبِيْهَ البَدْرِ فِي الحُسْـ ... ـنِ وَفِي بُعْدِ المَنَالْ

جُدْ فَقَدْ تَنفَجِرُ الصَّخْـ ... ـرَةُ بِالَماءِ الزُّلالْ

فالتشبيه الأول قريب لعمومه وتكراره وقلة التفصيل حسنا وبعد منال .

والثاني ضمني بعيد مُصوَّره في قسوته وتوقُّعِ الأملِ منه بالصخرة تنفجر بالماء . وقد تأثر بالقرآن ، في قوله في بني إسرائيل :

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة: ٧٤).

٢٦

وانظر كيف سَمَا النصُّ القرآنيُّ إلى ما لا يبلغه البشر ، فالمشبه (القلوب) أرقى من المشبه به درجات في قوله أو أشد قسوة مع استيفاء المشبه به ، وبين أوجه الانفجار بالماء من تفجر الأنهار والينابيع أو هبوطه بالخشية من الله ، حين تجلى الله لموسى وهو شعور نابض ، وابن الرومي شبه بالصخرة تنفجر بالماء فَقَلَّدَ ثم ضَؤُلَ وغَلَبَهُ ضَعْفُ البشر . وقال الأعشى :

غَرَّاءُ فَرْعَاءُ مَصْقُولٌ جَوَانِبُهَا   تَمشِي الهُوَيْنَا كَمَا يَمْشِي الوَجِي
كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا   مَرُّ السَّحَابَةِ لا رَيْثٌ وَلا عَجَلُ

في السير البطيء والحركة القليلة . وقال عمرو بن كلثوم :

وَثَدْياً مِثْلَ حُقِّ العَاجِ رَخْصاً   حَصَاناً مِنْ أَكُفِّ اللامِسِينَا

وقال آخر في نساءٍ أسيراتٍ :

ويَخْطُطْنَ بالعِيدَانِ في كُلِّ مَقْعَدِ   وَيَخْبَأْنَ رُمَّانَ الثُّدِيِّ النَّوَاهِدِ

والصورة بارعة معبِّرة للأسيرات شغلهن الحزن والهم ، فهن يناولن عيدانا يخططن بها ، وقد يذهلن عن أجسامهن فينكشف شيء وقد ينتبهن فيخبأن النهود ، وقد عبر التشبيه عن جانب من الصورة ، فصور الثُّدِيَّ بالرُّمَّانِ في الإنتاج والاستدارة ، ولا أدري لماذا أُحِسُّ التناقضَ الشعوري بين الأسى والكآبةِ صدر البيت ، والعبثِ الماجن نهاية البيت .

وقال ابنُ المعتز :

فَكَأَنَّ الرَّوْضَ وَشْيٌ   بَالَغَتْ فِيهِ التُّجَّارْ
نَقْشُهُ آسٌ ونِسْرِينٌ   وَوَرْدٌ وَبَهَارْ

شبه الروض في اختلاف الألوان واختلاطها بالبِسَاط المنقوش ، فمع التفصيل القليل فيما سبق يُسْرِعُ المشبه به إلى الذهن عند حضور المشبه إليه دون إبطاء ، ثم لا تنس أن التشبيه ـ مع قربه ـ يكون من مقتضى الحال ، أو رسمًا لواقع ، أوله دَوْرٌ في الصورة العامة .

* * *

التشبيه البعيد

وهذا اللون ممتد الأفنان والأطناب ، ينضوي تحت لوائه كثير من بليغ الكلام ، الذي يستولى على النفس ويملأ القلب سحرًا وفتنةً ، وإمتاعًا ؛ وذلك أنه لا ينتقل فيه من المشبه إلى المشبه به إلا بعد فكر وتلبث ؛ لأن الوجه خفيّ بادي الرأي ، لا يفزع إليه الخاطر ، ولا يقع في الوهم عند بديهة النظر ، إلا بعد تلبث وتذكُّر وإعمالٍ لقُوَى الفكر والخيال ، وسبب ذلك أمران :

١ - أن يدخل في التشبيه من التفصيل ما له دخل ويبعد ما يقدح في تحقيق التشبيه ، قال امرؤ القيس :

حَمَلْتُ رُدَيْنِيًّا كَأَنَّ سِنَانَهُ ... سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانِ

وقال عنترة في ورد بن حابس يُتَابع غريمه :

يُتَابِعُ لا يَبْتَغِي غَيْرَهُ ... بَأَبْيَضَ كَالقَبَسِ المُلْتَهِبْ

والدخان برأس الشعلة يقدح في تشبيه السِّنَان بالشُّعلة الملتهبة فنفاه أميرُ الشعراء الجاهليين وفاق عنترة الذي ترك تشبيهه هكذا غُفْلاً .

وقال امرؤ القيس :

كَأَنَّ عُيُونَ الوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا ... وَأَرْحَلِنَا الجِزْعُ الَّذِي لَمْ يُثَقَّبِ

وقال زهير :

كَأَنَّ فُتَاتَ العِهْنِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ ... مَرَرْنَ بِهِ حَبُّ الفَنَا لَمْ يُحَطَّمِ

وقال البُحتري في الشتاء :

أَهْدَى لَنَا بَرْدًا يَلُوحُ كَأَنَّهُ ... فِي الجَوِّ حَبُّ لآلِي لَمْ يُثْقَبِ

والجزع وحب الفنا واللآلئ إذا ثقب كان التشبيه غير ملائم للمشبه ؛ ذلك أن عيون الظباء والبقر تشبه الجزع ، كما يقول الأصمعي ، وهي حبة سوداء ،

فإذا ثقبت زاد بياضها[1] ، والمراد مثلا للصيد مما أكلوا ، والجزع وهو الخَوَر فيه سواد وبياض ، تشبه به عيون الوحش ، فهنا تشبيه تفرعت عنه كناية ، وكذا حب الفنا أحمر يتلاءم مع الصوف الأحمر ، إذا لم يحطم فإذا حطم وزالت عنه القشرة صار أبيض ، وكذا اللآلئ التي لم تثقب فاحترس بنفس ذلك كله .

٢- أن تُعْتَبَرَ جميعُ الأوصاف في المشبه ثم يؤتَى بالمشبه به على وفق ذلك .

قال أبو نُواسٍ في الخمر :

كَأَنَّ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا حَصْبَاءُ دُرٍّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

فقد اعتبر الشاعر ما يعلو سطح الخمر الأصفر من حُباب أبيض لامع في حجم مخصوص ، وطلب ما يقابله فوجدها في حصباء الدر المنثور على أرض من الذهب .

وقال قَيْسُ بنُ الأسْلَت :

وَقَدْ لاحَ فِي الصُّبْحِ الثُّرَيَّا لِمَنْ رأى كَعُنْقُودِ مُلاحِيَّةٍ حِينَ نَوَّرَا

ويتبعه امرؤ القيس :

إِذَا مَا الثُّرَيَّا فِي السَّمَاءِ تَعَرَّضَتْ تَعَرُّضَ أَثْنَاءِ الوِشَاحِ الْمُفَصَّلِ

فالهيئة المخصوصة من تقارُن صورٍ بين صغارٍ مستديرة في مرأى العين على كيفية مخصوصة إلى مقدار منصوص راعاه كلٌّ من الشاعرين في تصويره.

وقال بعض شعراء الدولة الأيوبية في الشمس :

وَلاحَتِ الشَّمْسُ تَحْكِي عِنْدَ مَطْلَعِهَا مِرْآةَ تِبْرٍ بَدَتْ فِي كَفِّ مُرْتَعِشِ

وآخر :

كَأَنَّهَا بُوتَقَةٌ أُحْمِيَتْ يَجُولُ فِيهَا ذَهَبٌ ذَائِبُ

---

(١) انظر المطول ص ٢٩٣ .

ومثل هذا من شعر تخييلي مصبوب في قوالب المعادن النفيسة والجواهر الغالية كثير مغرق في الحسية ، والتصوير مناسب لبيئته وعصره ، مثير للإبهار والتذكر أشبه بالتشكيلات النفسية المعجبة ، والشعراء في ذلك متفاوتون .

وأروعُ منه قولُ زُهير :

وَلَيْلٍ مُشْتَاقٍ كَأَنَّ نُجُومَهَا   تَفَرَّقْنَ مِنْهَا فِي طَيَالِسَةٍ خُضْرِ

وقول حازم الأندلسي :

كَأَنَّ بَيَاضَ الصُّبْحِ مِعْصَمُ غَادَةٍ   جَنَتْ يَدُهَا زَهْرَ الدُّجَى لَقَطَا

وابن المعتز :

كَأَنَّا وَضَوْءُ الصُّبْحِ يَسْتَعْجِلُ الدُّجِى   نُطِيرُ غُرَابًا ذَا قَوَادِمَ جُونِ

وذلك أعلى طبقةً من قول ابن هانىء :

كَأَنَّ عَمُودَ الصُّبْحِ خَاقَانُ عَسْكَرٍ   مِنَ التُّرْكِ نَادَى بِالنَّجَاشِيِّ فَاسْتَخْفَى

إذْ أنَّ هيئة الليل بنجومه التي تختفي شيئًا فشيئًا من بياض الصبح ، جعله الأول حديقة أزهارها النجوم تجتبيها يد حسناء واحدةً إثْر أُخْرَى ، وابن المعتز جعل الضوء يستعجل تشخيصًا ؛ ثم شبه بهيئة غراب أزعج فطار ، لا يلوي على شيء ، وذلك أدعى إلى الإسراع ثم شَرَطَ أن تكون قوادمُه بِيْضاً : إذ أنَّ الظلام يقع في جوانب الأفق ، والحواشي والوجه : سوادٌ يجاوره بياض ، قد دفع إلى حيث لا يرى ، أمَّا ابنُ هانىء فقد شوَّهَ الصورة ؛ لأن الظلام لا يختفي ضربة لازب كاختفاء النجاشي المُفَزَّع ، وهي صور بدوية طبيعية لها وقعُهَا الآسر .

وقال الصُّنُوبَرِيُّ :

كَأَنَّ فِي غُدْرَانِهَا   حَوَاجِبًا ظَلَّتْ تُمَطّ

وهذه الحيوية في الوجه وهو تحركٌ منحنٍ ، تكسراً وامتداداً ، من انحنائه وتقوسه فيه حركة لا تهدأ ولا تَفتُر ؛ لأنه متوالٍ ، فيه استقصاءٌ وحركةٌ ، وهذه الهيئات في الحركة ومثلُها في السكون مجرداً من كل حركة للشعراء فيها العجيب .

٣٠

قال ابن المعتز :

بَكَرَتْ تُعِيرُ الأرضَ ثَوْبَ شَبَابِ ... رَجِيَّةٌ مَحْمُودَةُ التَّسْكَابِ

نَثَرَتْ أَوَائِلُهَا حَيًا فَكَأَنَّهُ ... نُقَطٌ عَلَى عَجَلٍ بِبَطْنِ كِتَابِ

وقول الشاعر مُجَرَّداً الحَرَكَةَ :

حُفَّتْ بِسَرْوٍ كَالقِيَانِ وَلُحِّفَتْ ... خُضْرَ الحَرِيرِ عَلَى قَوَامٍ مُعْتَدِلْ

فَكَأَنَّهَا وَالرِّيحُ جَاءَ يُمِيْلُهَا ... تَبْغِي التَّعَانُقَ ثُمَّ يَمْنَعُهَا الخَجَلْ

وقال ابن الرومي في هيئة السكوت وما أشبهه بالنحت والتصوير يصف مصلوبًا :

كَأَنَّهُ عَاشِقٌ قَدْ مَدَّ صَفْحَتَهُ ... يَوْمَ الفِرَاقِ إلى تَوْدِيعِ مُرْتَحِلِ

كَأَنَّ لَهُ فِي الجَوِّ حَبْلاً يَبُوْعُهُ ... إِذَا مَا انْقَضَى حَبْلٌ أُتِيحَ لَهُ حَبْلُ

أَوْ قَائِمٌ مِنْ نُعَاسٍ فِيْهِ لُوْثَتُهُ ... مُوَاصِلٌ لِتَمَطِّيهِ مِنَ الكَسَلِ

وراجع ذا الرُّمَّةِ للدكتور يوسف خُليف وابن الرومي للأستاذ العقاد لترى الرسم الحركي والثابت ، فالألفاظ المجردة فاتقا كل تصوير ، بل راجع تمثيلات القرآن في بحثنا عن التشبيه في القرآن لتلمس الإعجاز بحواسّك وإدراكك .

والوجه الثالث من أوجه التفصيل :

أن تلاحظ خصوصية في الوصف الذي يُرَادُ اشتراك الطرفين فيه ؛ فإنها زائدة لوجودها في بعض أفراد الجنس دون بعض ، وهذا الوصف لا يجعل التشبيه مركبًا ، بل مفردًا مقيدًا ، وبالتالي لا يرقى إلى النوعين السابقين .

قال ذُو الرُّمَّة :

وَسِقْطٍ كَعَيْنِ الدِّيْكِ عاورت صحبتي ... أباها وهيأنا لموقعها وكرا

وقال آخر :

غَدَتْ عَيْنُه كَالجَمْرِ حَتَّى كَأَنَّمَا ... سَقَى عَيْنَهُ مِنْ مَاءِ تَوْرِيدِهِ الخَدُّ

تسمع للحلي وسواسا إذا ... كما استعان بريح عشرق زجل

فالحمرة في الأول فيه خصوصية ، وفي الثاني عامة ، وصوت الحُلِيِّ مشبها شجرة العشرق الجافّة بها حب صغير يصلصل إن مَرَّ به ريح له نوعية خاصة ؛ ولذا كان تشبيهُ ذي الرمة أرفعَ طبقةً من قول امرئ القيس ، وإن كان التعبيرُ عند امرئ القيس أوقعَ وأجملَ لما فيه من عَفْوِيَّةٍ وفطريةٍ وكثرة حركة .

كَأَنَّ عَلَى أَلْيَابِهَا كُلَّ سُحْرَةٍ ... صِيَاحَ الْبَوَازِي مِنْ صَرِيْفِ اللَّوَائِكِ

كَأَنَّ صَلِيْلَ الْمَرْوِ حِيْنَ تُشِذُّهُ ... صَلِيْلُ زُيُوفٍ يَنْتَقِدْنَ بِعَبْقَرَا

لأن صوت مواضع الناقة وصوت البوازي له نغمة خاصة حادة قليلاً ما تسمع من البوازي في السحر أبعد من صوت النقود عند امرئ القيس وأطرف .

السبب الثاني لخفاء الوجه في التشبيه البعيد :

نُدرةُ حصول المشبه به في الذهن ، إمَّا عند حضور المشبه لبعد المناسبة بينهما ، أو مطلقًا ؛ لأنه وهمي ، أو مركب خيالي ، أو مركب عقلي ، قالوا : لأن من غاب عن العين غاب عن القلب ، وكأنه عُرْضَةٌ للنسيان ، فما بالك بما لم تدركه الحواس أو تحيط به الظنون . قال سبحانه : ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ .

ذلك أن القمر إذا كان في آخر منازله دَقَّ واستوى ، والعُرْجُونُ : عُوْدُ العِذْقِ ، ما بين شمارخه إلى منبته ، قال الزَّجَّاجُ : هو « فُعْلُون» من الانعراج وهو الانعطاف ، وإذا قَدُمَ دَقَّ وانحنى واصْفَرَّ فشبه به من ثلاثة أوجه[1] ، والعجب أن من يتأثر بالقرآن يقصر تقصيرًا شائنًا كما قال ابن الرومي : لأنه لم يقيده بالقدم ، ولم يشر إلى أطوار القمر التي يشير إليها في الآية ﴿ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ ﴾ مع ما في الآيات من معان وإيحاء :

تَأْتِي عَلَى الْقَمَرِ السَّارِي نَوَائِبُه ... حَتَّى يُرَى نَاحِلاً فِي شَخْصِ عُرْجُونِ[2]

---

(١) الكشاف للزمخشري ١٣/٤ . (٢) الصناعتين ص ٢٥٠ .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ ينهاهم عن نقض الأيْمَانِ بعد توكيدها كالغَزْل المُبْرَمِ تَتَسَلّى المرأةُ الخَرْقَاءُ بنقضه ثم تعود إلى إبرامه ونقضه ، كالمرأة التي انحت على غزلها بعد أن أحكمته وأبرمته فجعلته أنكاثاً وشتاتاً وهي صورة غريبة[1] وليدةُ العقل والوهم في تصورنا البشري ، ويرى بعضُ المفسرين أنها صورةٌ واقعيةٌ حدثت في العرب لامرأة ضُرِبَ بها المَثَلُ في حُمْقِهَا .

وقال البُحْتُرِيُّ :

شَقَائِقُ يَحْمِلْـنَ النَّـدَى فَكَأَنَّـهُ دُمُوعُ التَّصَابِي فِي خُدُودِ الخَرَائِدِ
كَأَنَّمَـا أَنْجُـمَ السَّـمَاءِ لِمَـنْ يرْمُقُهَـا وَالظَّـلامُ مُنْطَبِـقْ
مَـالُ بَخِيـلٍ ظَـلَّ يَجْمَعُـهُ مِنْ كُلِّ وَجْـهٍ فَلَيْـسَ يَفْتَـرِقْ

فالمشبه به لا يَحْضُرُ بالذهن عند حضور المشبه ، بل كلٌّ من الطرفين من عالمٍ مختلفٍ جمع بينهما الشاعرُ في حِذْقٍ وذكاءٍ وإبداع.

وقال ابنُ المعتز:

وَلا زُوْردِيَّـةٌ تَزْهُـو بِزُرْقَتِهَـا بَيْتَ الرِّيَاضِ عَلَى حُمْرِ اليَوَاقِيْتِ
كَأَنَّهَا فَوْقَ قَامَاتٍ ضَـعُفْنَ بِهَـا أَوَائِلُ النَّارِ فِي أَطْرَافِ كِبْرِيْـتِ

مشبها زهور البنفسج الزرقاء على القامات الضعيفة بأوائل اشتعال النار في أطراف الكبريت .

والوجه : الهيئة من اللون الخاص متصلاً بالساق الدقيقة المختلفة لونًا .

والتباينُ والبعدُ بين طرفين ، أحدُهما نَبَاتٌ يَرِفُّ ، والآخر لَهَبٌ مَسْتَعِر ، جاف يابس ، جعل الإمام عبد القاهر يطيل في إفصاح عن أسراره في كتابه أسرار البلاغة[2]، وسار على دربه أجيالُ البلاغيين ، بيد أنَّ الدكتور أحمد بدوي،

---

(١) الكشاف للزمخشري ٢/٤٩٢ .

(٢) راجع : أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ص ١١٠ .

لم يَرُقْهُ التشبيه، لاختلاف الوقع النفسي، وما يوحيه البنفسجُ من هدوء واستلام، ثم ما يوحيه اللَّهَبُ من مهاجمة وقوة ويقظة فالرابط ضعيف والتشبيهُ[1] لَمْحُ صِلَةٍ بينَ أمرين واقعًا خارجيًا وواقعًا نفسيًا، والواقعُ صحةُ ما رآه عبد القاهر، واشتعالُ عودُ كِبْرِيت أَمْرٌ عاديٌّ لا نُحِنَّ فيه اليقظة والمهاجمة التي قالها الدكتور بدوي، والشاعرُ لا يشبِّه القاماتِ الضعيفةَ بل يشبه الزهرةَ في اجتماع الزُرْقَةِ والحُمْرَةِ لها بهذه الصورة النادرة التي تحتاج عينًا شاعرةً لاقِطَةً، وهو ما فعله بأسلوب وذوق عالٍ عبد القاهر، على أننا ننبه أن الشعراء متفاوتون في تصاويرهم وتشابههم بينَ قوة وضعف وهكذا طبع البشر.

والمتعالم في هذا الباب:

تُزْجِي أَغَنَّ كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ ... قَلَمٌ أَصَابَ مَنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا

لأنه ظَفِرَ بأقرب صفة من أبعد موصوف.

وقال سبحانه: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾.

وقال امرؤ القيس:

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ... وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

والتشبيه القرآني عندنا نحن البشر من الحس المتوهم والمعتقد استغلالاً للواقع النفسي والحسي عند الناس فالشياطين حق يتصورها الناس لما ذكرها القرآن، ولو قُدِّرَ لنا رُؤْيَتُها لأدركناها بالعين ومن هنا فالوهم يتصورها ولو أُدْرِكَتْ لأُدْرِكَتْ بالحِسِّ، خلافًا للزمخشري الذي يرى التشبيه وهمًا محضًا حسب اعتقاد العرب وزعمهم في الشياطين والغيلان، وما يركب في الطبائع من قبح هذه الشياطين دلالة على تناهي القبح، وكذلك أنيابُ الأغوال من المتوهَّمِ المخيف.

---

(١) أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني ص ٢٩٣ ومن بلاغة القرآن ث ١٨٨ للدكتور أحمد بدوي.

وقال ابن المعتز:

كَأَنَّ عُيُونَ النَّرْجِسِ الغَضِّ حَوْلَنَا ... مَدَاهِنُ دُرٍّ حَشْوُهُنَّ عَقِيقُ

شبه النرجس بالعيون أولاً ، ثم شبهه بمَدَاهِن الدُّرِّ بيضاء فيها عقيقٌ ، وهو مركب تخييلي ، ولقد كان الإغراب وسيلة تفضيل حيث فضل قول أبي طالب الرَّقي :

وَكَأَنَّ أَجْرَامَ السَّمَاءِ لَوَامِعًا ... دُرَرٌ نُثِرْنَ عَلَى بِسَاطٍ أَزْرَقِ

مع قول ذِي الرُّمَّةِ :

كحلاء في برج صفراء في نعج ... كأنها فضة مسها ذهب

مع هذا سارت كتب البلاغة ، ولكني عن نفسي أفضل بيت ذي الرُّمَّةِ لفظًا وموسيقى وصورة قريبة من الذوق العربي على هذه الصورة المستحيلة المفترضةِ من الدُّرِ والياقوتِ والعقيق.

وقال سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾ .

وقد شبه أعمال الكافرين الخَيِّرة دون أساس من الإيمان ، وإن كانوا يعتقدون الآخرة ، ثم يخيب في العاقبة أملهم ، ويلقون خلافة ، بسرابٍ يراه الكافر بالساهرة ، ظمآن يكاد ينقطع عنقه فيحسبه ماءً فلا يجد رجاءه ، ويجد الزبانية فيعذبونه سوء العذاب[1]. والسراب يراه الزمخشري في الآخرة بينما يراه «المودوديُّ» في الدنيا ، وهو الحق لأن طريقة القرآن ، أن ينتقل بالمرء بين الدنيا والآخرة مراتٍ في آية واحدة ، تصويرًا أو تشخيصًا ، ورسمًا حيًّا للآخرة ، وربطًا ، بل قل بلا ربط في أعماق المؤمن بين الدنيا والآخرة[2] ، وهو مركب عقلي وما أكثره في القرآن .

---

(١) راجع الكشاف ١٩٢١/٣ وتفسير سورة النور للمودودي ص ٢٠٦ .

(٢) راجع مشاهد القيامة في القرآن لسيد قطب ص ٧٩ .

وقال كُثَيِّرُ عَزَّةَ :

لَقَدْ أَطْمَعَتْنِي بِالوِصَالِ تَبَسُّماً ... وَبَعْدَ رَجَائِي أَعْرَضَتْ وَتَوَلَّتِ
كَمَا أَبْرَقَتْ قَوْماً عِطَاشًا غَمَامَةٌ ... فَلَمَّا رَأَوْهَا أَقْشَعَتْ وَتَجَلَّتِ

وقال قَيْسَ بْنُ المُلَوَّحِ :

كَأَنَّ القَلْبَ لَيْلَةَ قِيلَ يُغْدَى ... بِلَيْلَى العَامِرِيَّةِ أَوْ يُرَاحُ
قَطَاةٌ عَزَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ ... تُعَالِجُهُ وَقَدْ عَلِقَ الجَنَاحُ
لَهَا فَرْخَانِ قَدْ تُرِكَا بِوَكْرٍ ... فَعُشُّهُمَا تُصَفِّقُهُ الرِّيَاحِ
إِذَا سَمِعَا هُبُوبَ الرِّيحِ نَصَّا ... وَقَدْ أَوْدَى بِهَا القَدَرُ المُتَاحُ
فَلا فِي اللَّيْلِ نَالَتْ مَا تُرَجِّي ... وَلا فِي الصُّبْحِ كَانَ لَهَا بَرَاحُ

وطريقة المجنون تشير إلى ظاهرة تَكثُرُ في الشعر الجاهلي والأُمَوِيِّ يشبهون ناقتهم بأتان ، أو بقرة وحشية ، أو يشبهون المرأة بدرة ، ثم يحكون قصة خروجها من البحر في قصة مستوفاة وتفاصيل في غاية الدقة والبراعة ، وهو لون أكثر منه الشعراء ولم يلتفت إليه البلاغيون القدماء ، وهناك لونٌ آخر من التمثيل ، أو ظاهرةٌ يمكن أن تُسَمَّى بالتشبيه الدائري ، له صياغة خاصة حيث تتقدم «ما» النافية يليها المشبه به متبوعًا بفيض من الصفات تصلُ به غايةَ المعنى ، يليها أفعلُ التفضيل داخل على المشبه المفضل عليه ، موهما سلب التشبيه وعكسه معا ، مبالغة في وصف المشبه ، كما تقول : «ما النيل بأجود منك» فهو لون من التشبيه الضمني ، وإن كان له صورة خاصة ، وإليك هذه الروائعَ الجديدةَ :

قال عليه الصلاة والسلام : «مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ المَرْءِ عَلَى المَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ»[1].

---

(١) راجع الأصول الفنية للشعر الجاهلي ص ١٠٩ والقصة في الشعر العربي للدكتور علي النجدي ناصف ، وذو الرُّمَّةِ شاعر الحب والصحراء .

وقال النَّابِغَةُ :

فَمَا الفُرَاتُ إِذَا هَبَّ الرِّيَــاحُ لَــهُ ... تَرْمِي أَوَاذِيُّــهُ العِــبرين بالزَّبَــدِ
يَمُدُّهُ كُــلُّ وَادٍ مُتْــرَعٍ لَجِــبٍ ... فِيهِ رُكَامٌ مِنَ اليَنْبُــوتِ وَالخَضَــدِ
يَظَلُّ مِنْ خَوْفِهِ المَــلاحُ مُعْتَصِــماً ... بِالخَيْزُرَانَةِ بَعْــدَ الأَيْــنِ وَالنَّجَــدِ
يَوْمًا بِأَجْوَدَ مِنْــهُ سَــيْبَ نَافِلَــةٍ ... وَلاَ يَحُولُ عَطَاءُ اليَوْمِ دُونَ غَــدِ

وقال الأعشى :

مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الحَزْنِ مُعْشِــبَةٌ ... خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسْــبِلٌ هَطِــلُ
يضاحك الشمس منها كوكب شرق ... مــؤزر بعمــيم النبــت مكتهــل
يَوْمًا بِأَطْيَبَ مِنْهَــا نَشْــرَ رَائِحَــةٍ ... وَلا بِأَحْسَنَ مِنْهَــا إِذْدَنَــا الأُصُــلُ

وقد كَثُرَتْ هذه الظاهرةُ في شعر الأعشى ، وقال النقاد إنها أساسُ التصوير القصصي في الشعر ، وقد التقط ذو الرُّمَّةِ الخيطَ وسار أشواطًا ، ونقدم لك هذا الشاهد وفيه يشبه أنفاس «مَيَّةَ» بعد النوم بأنفاس رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ من رياض نَجْدٍ ، تنهل عليها الأمطار في ليلة من ليالي الربيع الحالمة ونسمات الصبا تسري إليها ، فتحمل أريجها وشذاها كلَّ مَحْمَل :

فَمَا رَوْضَةٌ مِنْ حَرِّ نَجْــدٍ تَهَلَّلَــتْ ... عليها سماء ليلــة والصــبا تســري
بــهــا ذوق غصن النبات وحنــوة ... تعاورها الأمطار كفرا علــى كفــر
بِأَطْيَبَ مِنْهَا نَكْهَــةً بَعْــدَ هَجْعَــةٍ ... وَنَشْــراً ولا وعشــاء طيبــة النشــر

* * *

بين التركيب والتعدُّد

للتركيب أو التمثيل من حيثُ بناؤه ضربان : ضَرْبٌ لا يجوز فَضُّ تركيبه ؛ إذ لا يصح تشبيهُ كلِّ جُزْءٍ بما يقابله للقصد إلى الهيئة ، كقول ابن المعتز :

غَدَا وَالصُّبْحُ تَحْتَ اللَّيْلِ بَادِ　　كَطِرْفٍ أَشْهَبٍ مُلْقَى الجِلالِ

شبه اختلاط بياض النهار بظلمة أواخر الليل بجواد أبيض مَالَ عنه جُلُّه حتَّى انكشف أكثرُ جسده ، ولو قلت : كأن الليلَ جِلالٌ ، فسدت الصورة .

ولآخر :

كَأنَّه وَكَأنَّ الكَأسَ فِي فَمِهِ　　هِلالُ أَوَّلِ شَهْرٍ غَابَ فِي الشَّفَقِ

وقال الشاعر :

وَالبَدْرُ يُستَرَ بِالغُيُومِ وَيَنْجَلِي　　كَتَنَفُّسِ الحَسْنَاءِ فِي مِرْآتِهَا

الثاني : ما يجوز فضُّ تركيبه كقوله :

وَكَأنَّ أَجْرَامَ السَّمَاءِ لَوَامِعاً　　دُرَرٌ نُثِرْنَ عَلَى بِسَاطٍ أَزْرَقِ

وقوله :

وَلَيْلَةٍ لَيْلاءَ فِي اللَّونِ　　كَلَونِ المَفْرِقِ
كَأَنَّ نُجُومَهَا　　فِي مَغْرِبٍ وَمَشْرِقِ
دَرَاهِمٌ مَنْثُورَةٌ　　عَلَى بِسَاطٍ أَزْرَقِ

لكن الهيئة والقصة إلى التركيب وتداخل الجزئيات تملأ القلب سروراً وعجبًا وهذا مُرَادُ الشاعر ، وهذا التركيب يختلف عن المتعددة ، وهي تشبيهات مفردة جُمِعَتْ في قَرَنٍ واحد ، سواءٌ أُتِيَ بالمشبَّهاتِ في جانب والمشَّبهَاتِ بها في جانب آخر ، وهو التشبيه الملفوف ، كقول الشاعر :

تَبَسُّمٌ وَقُطُوبٌ فِي نَدًى وَوَغَى　　كَالرَّعْدِ وَالبَرْقِ تَحْتَ العَارِضِ البَرِدِ

أم توالت التشبيهات وهو المفروق كقوله :

عَزَمَاتُهُمْ قُضُبٌ وَفَـيْضُ أَكُفِّهِـمْ ... سُحُبٌ وَبِيْضُ وَجُـوْهِهِمْ أَقْمَـارُ

أم تعدد أحدهما دون الآخر وهو تشبيه التسوية إن تعدد المشبه والجمع إن تعدد المشبه به كقوله :

صَـدْغُ الحَبِيْـبِ وَحَـالِي ... كِلاهُمَـا كَاللَّيَـالِي

وَثَغْـرُهُ فِـي صَـفَاءٍ ... وَأَدْمُعِـي كَـاللالي

وقوله :

كَمْ نِعْمَةٍ مَـرَّتْ بِنَـا وَكَأَنَّهَـا ... فَرَسٌ يُهَرْوِلُ أَوْ نَسِـيْمٌ سَـارِي

إلا أن الفارق أن المتعدد لا يُقْصَدُ فيه إلى هيئة ، ولا يجب في التشبيهات ترتيب خاص ، ولو حُذِفَ بعضها لما تغير الباقي في إفادته ، وإن كان التعدد صيغة طيبة فيها جمال الاختصار والتوضيح والاستيفاء والغرابة ولذا أعجب القدماء بقول امرئ القيس:

لَهُ أَيْطَـلا ظَبْـيٍ وَسَـاقَا نَعَامَـةٍ ... وَإِرْخَاءَ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيـبَ تَتْفُـلِ

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطبًـا وَيَابِسًـا ... لَدَى وَكْرِهَا العُنَّابُ وَالحَشَف البَالِي

على أن أعجب ما رأيتُ في التعدد ما يضيف جديدًا للبلاغة مما تتعاون فيه التشبيهات في تكوين موصوف كقول النبي ﷺ: «يَخْرُجُ في آخر الزمان رجالٌ يَخْتِلُونَ الدُّنْيَا بالدِّين يَلْبَسُونَ للناس جُلُودَ الضَّأنِ من اللِّين ، أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى من السُّكَر ، وقُلُوبُهم قلوبُ الذِّئاب»[1].

وقد تفرع عن التشبيهين كنايتان عن موصوف واحدٍ هو لون من المنافقين يكثرون في عهدنا هذا .

وانظر أيضًا في هذه الآية وقل لي تحت أية قاعدة تندرج : ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ فقد ثَنَّى المشبه

---

(١) التاج الجامع ٥/٢٠٣ .

(الفريقين) ثم أضمر الفريق الأول مشبها بالأعمى والأصم ، أي من جمع بين العمى والصمم ، وأضمر الثاني وشبه بمن جمع بين البصر والسمع أو شبه كل فريق مرتين مرةً بالأعمى ومرة بالأصم والآخر مرة البصير ومرة بالسميع ، ثم ثنى أخيراً ما تفرق وتنوع معنى ودلالة وتأثيراً وظلاً ، في مدخول استفهام إنكاري مثير ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ ولقد تَجَرَّأَ الإمامُ الزمخشري - رضي الله عنه - فذكر بيت امرئ القيس (قلوب الطير) السابق للتنظير[1]. ألست معي في أن «مَثَل» في الآية بمعنى «الحالة والصفة» عنوانُ التمثيل ، ويكون من تعدد التمثيل ، فهنا هيئات متعددة جمعت في قَرَنٍ واحد ، ألم أقل لك إن بلاغتنا يجب أن نوسع أطرافها تحت ظلال القرآن العظيم ؟

* * *

(١) راجع الكشاف للزمخشري ٢/٢٠٣ .

التشبيه بين القرب والبعد

اعتبر البلاغيون كون المشبه به أمرًا جمليًا أو مكررًا على الحواس سببًا لقُرْبه ، وهذا إذا كان ساذجًا صريحًا لا صنعةَ فيه ولا نقش ، فإذا دخله التمثيل والتعريض أو التفنن والصنعة أو الحيلة والفطنة كان غريبًا مُبْهجاً وذلك :

١- أن يكون التشبيه ضمنيًا أو مطويا أو انضم إليه حُسنُ التخيُّل كقول الشاعر :

سَلَبْنَ ظِبَاءَ ذِي نُفُرٍ طُلاهَا ... وَنَجْلِ الأعينِ البقر الصُّوَارَا

والطلا : الأعناق . الصوار : القطيع .

وقال المتنبي :

لَمْ تَحْكِ نَائِلَكَ السَّحَابُ وَإِنَّمَا ... حُمَّتْ بِهِ فَصَبِيبُها الرُّحَضَاءُ

لَمْ تَلْقَ هَذَا الوَجْهُ شَمْسُ نَهَارِنَا ... إلا بِوَجْهٍ لَيْسَ فِيهِ حَيَاءُ

وقال أبو نُوَاس :

إِنَّ السَّحَابَ لَتَستَحِي إِذَا نَظَرَتْ ... إِلَى نَدَاكَ فَقَاسَتْهُ بِمَا فِيْهَا

ذلك أن تشبيه المرأةِ بالظبية والكريمِ بالسحاب والوجهِ بالشمس قريبٌ مشهور ، وقد أخرجه الشاعر إلى الجدَّةِ والطَّرافة ، فجاء التشبيهُ ضمنيًا مطويًا ، وأوهم بصنعته وتخيُّله أن هنا سلبًا وسَرِقَةً وأن السحاب يستحي ويُقَارن وَيقِيس ماءَه بفيض الممدوح .

والنظمُ كلُّه بما فيه من صور بيانية أخرى وتخيل أعان على التفوق والبراعة . قال الفرزدق لجرير :

ضَرَبَتْ عَلَيكَ العَنْكَبُوتُ بِنَسْجِهَا ... وَقَضَى عَلَيْكَ بِهِ الكِتَابُ المُنْزَلُ

آخر :

وَكَأَنَّ بَابِلَ أَصْبَحَتْ فِي جَفْنِهِ ... وَكَأَنَّمَا الأَهْوَازُ فِي شَفَتَيْهِ

ثانيًا : أن يُقيَّدَ التشبيهُ بوصفٍ فيه دقةٌ ويُسَمَّى التشبيهَ المشروط ، قال أبو تمام :

مَهَا الوَحْشِ إلاّ أنْ هَاتَا أوَانِسٌ ... قَنَا الخَطّ إلاّ أنّ تِلْكَ ذَوَابِلُ

بديع الزمان :

يَكَادُ يَحْكِيكَ صَوْبُ الغيْثِ مُنْسَكِباً ... لَوْ كَانَ طَلْقَ المُحَيّا يُمْطِرُ الذّهَبَا
وَالبَدْرُ لَوْ لَمْ يَغِبْ وَالشّمْسُ لَوْ نَطَقَتْ ... والأُسْدُ لَوْ لَمْ تُصَدْ ، وَالبَحْرُ لَوْ عَذُبَا

والآخر :

عَزَمَا مِثْلُ النُّجُومِ ثَوَاقِباً ... لَوْ لَمْ يَكُنْ لِلثّاقِبَاتِ أفُولُ

فالتقييد أوهم أن المشبه يرتقي درجات على المشبه به وهو الأصل في التشبيه .

ثالثًا : أن يكون بتصرفٍ يخرج على التشبيه المعهود ، أو بالجمع بين عدة تشبيهات كقول البُحتري :

فِي طَلْعةِ البَدْرِ شَيءٌ مِنْ مَحَاسِنِهَا ... وَلِلْقَضِيبِ نَصِيبٌ مِنْ تَثَنِّيهَا

فقد عكس التشبيه وأوهم نقصان البدر المنور والغصن الميَّاس ، فلهما شيءٌ ونصيبٌ من جمالها وتأودها .

وقال البارودي :

مَنْ كل مَائِة كَالغُصْنِ قَدْ جَمَعَتْ ... بَدَائِعًا كَأنّهَا لِلْحُسْنِ أو صَاحُ
فَالعَيْنُ نَرْجِسَةٌ وَالشّعْرُ سَوْسَنَةٌ ... وَالنّهْدُ رُمّانَةٌ وَالخَدُّ تُفّاحُ

وننبه هنا إلى أن الدقةَ والعُمْقَ وحسنَ الصنعةِ ولطفَ التخيُّل وما تحتاج من ريثٍ ومَهَلٍ في استجلاء الصورة واستكناه أسرارها غيرُ التعقيد المعنويّ الذي لم تُرَتَّبْ ألفاظُه أو اختلت فيه صورةٌ أو تَنَاقَضَ فيه خيالُه وتنازَعَ المعنى الأولُ والثاني كما مر بك من قول الفَرَزْدَق :

وَمَا مِثْلُهُ فِي النّاسِ إلاّ مُمَلّكاً ... أبُو أُمّهِ حَيٌّ أبُوهُ يُقَارِبُهْ

وقال الإمام البُوصِيري :

وَالنَّفسُ كَالطِّفْلِ إنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى حُبِّ الرَّضَاعِ وَإنْ تَفطِمْـهُ يَـنفَطِمِ

فأوصـاف المشـبه بـه تكـاد تنسـيك المشـبه وقـد يتسـابق الشـعراء في ذلـك فيبدعون .

قال الشاعر :

هِيَ الشَّمْسُ مَسْكَنُهَا فِي السَّمَاءِ فَعَـزِّ الفُـؤَادَ عَـزَاءً جَمِـيْلا
فَلَنْ تَسْـتَطِيْعَ إلَيْهَـا الصُّـعُودَ وَلَنْ تَسْـتَطِيعَ إِلَيـكَ النُّـزُوْلا

وهو تشبيه تجري فيه دماءُ الاستعارة من تناسي التشبيه ؛ إذ طلـب العـزاء ، وأثبت لها البعد المكاني ؛ تَخيُّلاً وصنعة .

وقـد يُـذْكَرُ وصـفٌ خـاصٌّ بالمشـبه يشير إلى الوجـه ويركـز علـى صـفته الواضحة نزولاً على المقام ويكون من « تجريد التشبيه » .

كقول النبي الكريم : « أصْحَابِي كَالنُّجُومِ بَأَيِّهِم اقْتَدَيتُم اهْتَدَيْتُم » .

وقال البحتري :

فَكَالسَّـيْفِ إنْ جِئْتَـهُ صَـارِخًا وَكَـالْبَحْرِ إنْ جِئْتَـهُ مُسْـتَثِيْبَا

وقال الشاعر :

وَلَيْلَـةٍ لَـيْلاءَ فِـي اللَّـوْنِ كَلَـوْنِ المَفْـرِقِ
كَأَنَّمَـا نُجُومُهَـا فِـي مَغْـرِبٍ وَمَشْـرِقِ
دَرَاهِـمٌ مَنْثُـورَةٌ عَلَـى بِسَـاطٍ أَزْرَقِ

وقد يذكر وصف كل من الطرفين كقول ابن الرومي :

دَهْرٌ عَـلا قَـدْرُ الوَضِـيعِ بِـهِ وَغَدَا الشَّـرِيْفُ يَحُطُّـهُ شَـرَفُهْ
كَـالبَحْرِ يَرْسُـبُ فِيـهِ لُؤْلُـؤُهُ سُـفلاً وَتَطْفُـو فَوْقَـهُ جِيَفُـهْ

ونـبه إلى شيء آخر : أن البلاغة والجمال وإن كانت معجبة فيما فيه تركيـب وصنعة وتفنن ومبالغة فإن ارتباطهـا دائمًـا وأبـدًا بمـا يكـرر أئمـة البلاغـة مـن

التشبيه البليغ أروع مما ذكرت أداته. وأن العقلي أبدع من الحسي ، وأن ما كثرت خصلاته أرفع مما قلت فيه ، فهذا حكم قد يَصِحُّ أحيانًا ويتخلف مرارًا ؛ وإنما الحَكَمُ في ذلك مراعاةُ المقامات ودقةُ النظم وتضامنُ الأسلوب وبراعة الصياغة صدقُ الشعور وجِدَّةُ العَرْضِ والفكرةِ ، وما رأيك إذا عانق التشبيهُ لونًا أسلوبيًّا آخر أو أكثر أو لونًا بيانيًّا أو بديعيًّا أو تداخلت التشبيهات ، أو تفرع التشبيه عن كناية أو العكس ، وإذًا يُصِبْحُ الحُكْمُ بالأبلغية المطلقة تَسَرُّعًا لا يَسْلَمُ من الخطأ والله الموفق .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين الرحمن الرحيم ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ وبارَك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

أما بعد

فقد راعني ما رأيت من لفيف من طلاب الكلية بإيتاي البارود من بُعْدٍ عن العربية ونفارٍ من بلاغتها الأسلوبية والتقعيدية ، وبحثت عن الدَّاءِ فوجدته غالبًا يكمن في أمرين : التقيُّد الشكلي الفارغ بمناهج مكررةٍ ميتةٍ يستظهرها الطلابُ رهبةً من الامتحان ، وقاتلَ اللهُ الشكليةَ العقيمة ؛ فإنها تقابلنا حيثما حَلَلْنَا . والأمر الثاني : دعاة العامية وشياطين الأمية في أجهزتنا الإعلامية وسواها ، وأشباه الشعراء المتسكعين في أزقة الأدب ، فقد أوشكوا أن يقتحموا أسوار الجامعة في الأزهر ، وكان لا بد من تَصَدٍّ عنيفٍ وثورةٍ علميةٍ ومنهجٍ قاصدٍ واعدٍ يرتع بالطلاب إلى ما يرجى منهم من غَدٍ مُشرقٍ للعربية وأدبها تؤدي رسالتها في موكب الرسالات ، واتجهت إلى القرآن العظيم فربطت به الدرس البلاغي نَصًّا وقاعدة ، وجعلته الحَكَمَ فيما قَنَّن البلاغيون من أصول ، ثم جعلت مادة البحث البلاغي دائرةً في فَلَكِ القرآن ، فقسمت الطلاب إلى ثلاث مجموعات ، وعلم البيان أيضًا في القرآن ؛ لافتًا لهم إلى ما فيه من جمال بِكْرٍ خالدٍ موجِّهًا إلى المنهج الإحصائي الحديث للتعرف على الدلالات الخاصة للفظ القرآني والطريقة الفنيةِ للتصوير البياني في القرآن ، آخذًا لهم بكثير من الحَزْمِ وكلِّ التوجيه والعون ، فلمست فيهم نشاطًا متألقًا ضَاعَفَهُ شبابُهم المتوقِّدُ

وعـزيمتهُم القويَّـةُ وإحساسُـم بالانتمـاء إلى الأزهـر كعبـةِ العربيـةِ والإسـلام ، فأحسسـت بسـعادةٍ غـامرةٍ وبخاصـةٍ أنهـم يحملـون همـومَ البحـث ومشكلاته المؤرقة ، فلم أبخل عليهم بالتوجيـهِ والعـونِ والوقـتِ راضـيًا باسمـا . ثـم إنهـم رَغِبُوا إليَّ أن أكتب لهم شيئًا في هذا التصوير البياني ليكون مَـثَلاً يُؤَصِّـلُ فـيهم أسلوبَ البحث وقد عانوه ، وثمرته وقـد استشـرفوها ، علـى أن يكـون مَرْجِعًـا يُسْتَضَاءُ به يفيدون منه ولا يقلدون ، ويثير فيهم التأمل والفحص فكنيت علـى هذا الشرط آملاً أن يأخذِ البيانُ القرآنيُّ حظَّه في قاعاتِ الـدرس والبحـث علـى مستوى التخصصات كلِّها صقلاً للسـان ، وقـوةً للبيـان ، وتمكينًـا للغـة العربيـة الشاعرة ، ورَقِيًّا بالذوق الأدبي ، والحاسة الجمالية ، وتربيـة للمواهـب ، وإقامـةً لما اعْوَجَّ من طباعٍ وفِطَرٍ ، مع فَـيْضٍ مـن القـيم تترقـرقُ في الأسـاليب تَرَقْـرُقَ الشـبابِ في الشـبابِ ، وخمـرة الحيـاءِ في وَجْنَـةِ العَـذْرَاء ، وخمـرة الرَّبيـعِ في الغُصْنِ الميَّاس ، ونسـتعينُ اللهَ ونرجـوه التوفيـقَ في الأمـرِ كُلِّـه والإخـلاصَ في القولِ والعمل »»

أستاذ دكتور

صبَّاح عبيد دراز

قضـــايـــا

نقدم هذه الملحوظات بين يدي بحثنا مثيرةً التأمُّلَ والتفكيرَ دافعـةً إلى الجِـدِّ في البحثِ وصولاً إلى شيء من الحقيقةِ الجماليةِ الكُبْرَى للقرآن الكريم :

وأولى هذه المحلوظات :

أنَّ اللهَ الخالقَ جعلَ البيتَ الحـرامَ الـذي بمكَّـةَ أَوَّلَ بيـتٍ وُضِـعَ للنـاس وفي مركز الكرة الأرضية كما تعلَمَ عنـد معاصـري البـاحثين ، وجعـل أُمَّـةَ الإسـلامِ والعربِ أصلَها ومادَّتَها ـ أُمَّةً وَسَطاً بكل ما توحي به الوَسَطِيةُ من معنى حسـيٍّ كالتوسُّطِ بين الأمور ، أو عقليٍّ كالعَدْلِ والفَضْـلِ والفضـيلةِ ، وهـي وسـط بـين طرفين ، بهذا كانت خيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناس ، ومنحَ رسالة الإسلام صفاتٍ ذاتيةً أصبحتْ بها سُنَّةً من سنن الله ، وناموسًا خالدًا لا تتعارضُ ولا تتصادم ، بل تُعِينُ العقلَ والفطرة علـى التطهُّـرِ والوصـولِ إلى الحقيقـة والسـعادةِ ، وكـان القـرآنُ مَظْهَرَ هذه الرسالةِ وكَلَمَةَ اللهِ الأخيرةَ إلى البشرية حقًّا وصدقًّا في سَنَدِهَا ومَتْنِهَا وحِفْظِهَا لفظًا وحَرْفاً وتواترًا إلى نهايـة الزمـان ، ممـا جَعَلَـهُ نَسِيجَ وَحْـده بـين الكتب على كل مستوى .

وقد اختار اللهُ لغةَ العـربِ قالَبًـا لكلماتِـهِ القُدْسـيةِ فـأظهر أسـرارَها ، وأبـرزَ جَمالها ، وأَلَّفَ بين محاسِنِها . وخَفِيِّ طاقاتـهـا ، واستثمر كـلَّ حُسْـنٍ فيـهـا ، ما كان لبشرٍ أَنْ يَصِلَ إليه ، فأخرج جمالَها في الحروف ، وأجراسَهَا إيقاعًا من عالم الـرُّوحِ والخُلْـدِ حيـةً متنوعـةً ، وفي الكلمـاتِ منتقـاةً مختـارةً ، كـلُّ لَفْظٍ كالكوكبِ الدُّرِّي إشعاعًا وجلالاً ، وفي أساليبَ لها ظـاهرٌ بـاهرٌ ومعنـى قـاهِرٌ

بدلالات إلهيـة وفي تلاؤم وَوَحْدَةٍ ونظامٍ وتصـويـرٍ خاصٌ جَعَلَه شمسًـا إلهيـةً لا تَفْتَأُ ترسل شعاعاتها للإنسان[1].

وثاني هذه القضايا :

أنَّ اللهَ مَنَحَ العربَ قوَّةً في البيان ، وجمالاً في التعبير ، ونَاطَ ذلك بأرواجهم وحياتهم وتقاليدهم ، فكان لهم حياةً وراحةً وقدسًا وغايةً وفخرًا وسلاحًا وَمَنَاطَ مَدْحٍ وقدح وإعلامًا وإشهارًا ، فكَثُرَ الشِّعرُ والشعراءُ والنَّقدُ والحِكَمُ والسَّجْعُ والأمثال ، وصار سِمَةً لهم كسِمَاتِ الوجُوهِ وفِطْرِيَّ الصِّفَاتِ كالكرم[2] ، فكان كالسِّحرِ سِمَةِ المِصْرِيين على عهد سيدنا موسى ، والبراعةِ في الطِّبِ سِمَةِ بني إسرائيل لعهد سيدنا عيسى ، فنزل القرآن معجزةَ دينٍ ودليلَ صدقٍ وحُجَّةَ سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام في عالم البلاغة ، وقد أُخِذَ العربُ به كما يؤخذُ المقهورُ ، وفُتِنُوا بسحره ، وسَجَدُوا لجلاله ، واستوى في ذلك المؤمنُ والمعاند[3]، بل رُبَّمَا كان عنادُهم وتسميتُه سِحْرًا وشعرًا وكَهَانَةً أَدَلَّ نفسيًّا على إيمانهم بقوة سلطانه ؛ لأنها أمورٌ كانوا ينقادون لها ويخشعون حيال تأثيرها الغريب ، بل نـزلـوا إلـى مـا فيهم مـن طفـولـة وصبيانية ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ ، وكان هذا شهادةً من أرباب الفصاحة لقرآنِ الله المجيد .

وثالث هذه القضايا : أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ القديم وصفته المقدمة ، وتنزيلُه بلغةِ العرب لا يُخْرِجُه عن كونه صفةً ومعجزةً خارقةً ، وما يقع تحت حواسنا من آيات الله من بشرٍ وحيوانٍ ونباتٍ وجمادٍ فيها من الأسرارِ والقوانين الإلهية

---

(١) راجع : اللغة الشاعرة ـ العقاد ص٤٦ والتصوير الفني في القرآن ـ سيد قطب ص٣٦.

(٢) راجع : البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠ والفَنُّ ومذاهبه في الشعر العربي ص ٣٩ والنثر العربي ص ٣٥ ـ شوقي ضيف .

(٣) راجع : إعجاز القرآن ـ الباقلاني ص٢٧ والرافعي ص١٨٨، والتصوير الفني ص١٤.

ما يَعْرِفُه الإنسانُ وما خَفِيَ عنه ، وكلما ازداد عِلْماً أَحَسَّ عَجْزًا ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ ؛ وذلك أنَّ الله تعالى بصفاته القدسية أبدَعَ وأحكمَ ، وعَقْلُ البَشَرِ وهو مما أَبْدَعَ وَخَلَقَ أَذَلُّ من أنْ يُحِيطَ بما صَنَع الجبَّارُ العظيم ، وإن كان قد يلتقط خيطًا هنا أو هناك ، ويلمح شعاعًا في هذا السبيل أو ذاك ، وفي كلٍّ هو مفتونٌ بالأثر الإلهي مشدودٌ إليه مشغوف[1] ، فالجمالُ البيانيُّ في القرآن جمالٌ إلهي ، لا يحيطون بشيءٍ منه إلا بما شاء ، بله العلوم والمعارف والأسرار الدقيقة ، وإن تعجب فَعَجَبٌ أن يمضي على نزوله أربعةَ عشر قرنًا حاول العلماءُ في البلاغة والتفسير والبيان وعلوم الإعجاز أن يقدموا شيئًا من أسرار جماله ودلائل إعجازه واختلفت الدروب والمناهج والنظريات ثم ما اصطنع كثيرٌ من علماء عصرنا من مناهج توائم التقدم البشري ، وكلُّ ذلك حُلْوٌ طيِّبٌ ، لكن كثيرًا منهم يؤمن بأنه لم يبلغ مبلغًا ، وقليل منهم اعتقد أنه لن يدع للآخر شيئًا .

وعَبْرَ الزمانِ صار الجديدُ قديمًا لا يستوعب تطلعاتِ العصر ، بل ولا حرفًا من الحقيقةِ الكبرى للجمال القرآني ، كما أشار النبيُّ ﷺ : القرآنُ جديدٌ لا تنقضي عجائِبُه ، وأشار القرآنُ نفسُه في بعض التأويلات ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴾ وفي أكثر من مناسبة ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ .

الحقيقة الرابعة : أن الصورةَ البيانيةَ بمفهومِها البلاغيِّ في القرآن على كثرة ما سَطَّرَ القدماءُ والمحدثون ما زالت بكرًا لم يَرْتَدْهُ إلا القليلُ ؛ ذلك أنهم تكلموا حولَها وحولَ القرآن كثيرًا ، وقدَّموا من النصوص قليلاً ، ولن تجد فيما

(١) النبأ العظيم ـ محمد عبد الله دراز ٢/٢٦، راجع إعجاز القرآن للرافعي ص٧٧ ومقدمة إعجاز الباقلاني ـ سيد صقر ص٧٠ والإعجاز البياني ـ بنت الشاطئ ص١١٦ .

وَعَتْ ذاكرةُ التاريخ إلا الإمامَ المعتزليَّ الزَّمَخْشَرِيَّ ، ثم إنه لم يعالج إلا جزءًا من البيان بطريقة جزئية ، وإن كانت له لمحاتٌ ولفتاتٌ ذوقيةٌ ونفسيةٌ بارعةٌ[1] ، أما المُحْدَثُونَ فَنِعِمَّا هُمْ ، اتَّبَعَ بعضُهم الأسلوبَ الأدبيَّ الجمالِيَّ الفضفاض في الكشف عن أسرار الإعجاز تقديمًا للأثر والمعنى والظل والإيحاء ، كالرافعي ، ودراز ، ومحمد عبده ، وأمين الخولي ، وسيد قطب ، على أنني مُعْجَبٌ بالمنهج الإحصائي العلمي التحليلي الذي أصبح طابع العصر في العلوم والمعارف ونقله داعيًا الشيخ أمين الخولي إلى مَيْدَان الدراسات القرآنية والأدبية والإنسانية بوجه عام ، وطَبَّقَتْهُ بذكاء ونجاح تلميذتُه بنتَ الشاطئ ، وقدمت جديدًا في الدلالة المعجمية القرآنية الخاصة لعديدٍ من الألفاظ[2] ، وسار على النَّهْجِ ذاتِهِ قليلٌ من المؤلِّفين في الدلالات القرآنية ، وإذا طبقنا هذا المنهجَ على الألوانِ البيانيةِ وسائرِ ضُرُوب البلاغة بفروعها في القرآن الكريم ـ وهو ما تَنَبَّهَ إليه بعضُ الباحثين ـ فأعتقد أنَّ جيلَنا يمكن أن يقدِّمَ مفاهيمَ حيَّةً وأسرارًا طيبةً في الأسلوب وطريقةِ الاستعمال القرآني ؛ أساسًا طيبًا للإضافة والإفاضة . على أن المناهجَ مهما تنوعت بحثًا في الكشف عن الجمال القرآني فهي تتفقُ ولا تختلف ، وتلتقي وتأتلف ، ولا تتضارب أو تتنافر ، ولها أثرٌ جليل في مَيْدَانِ البلاغة والنقد الأدبي الذي تتخبطه النثريات الغربية من الرمزية إلى السُّرْيَالِيَّةِ إلى البِنْيَوِيَّةِ بعيدًا عن واقعنا الأدبي المشتت .

الحقيقة الخامسة : أنَّ المنهجَ الأمثلَ عندي أن تستقصى آياتُ القرآن في اللون البياني مثلاً مع الاستعانة بمَعْجَمِ ألفاظِ للقرآن ، ثم نتعرف على طريقة الاستعمال حقيقةً أو مجازًا بجمع النظائر والأشباه وإحصاء أوجه الخلاف

---

(١) راجع منهج الزمخشري في تفسير القرآن ـ للدكتور الجويني ص ٢٣٤ والبلاغة تطور وتاريخ ص ٢٤٣ .

(٢) راجع كتابيها الإعجاز البياني ـ والتفسير البياني للقرآن .

ومهما يكن من أمرٍ فهذه محاولةٌ نحاول تأصيلَها في الدرس الجامعي ؛ ربطًا لأجيالنا بكتاب العربية الأكبر ؛ استشرافًا لآفاقه ، ونهلاً من نَبْعِه ، وتقويمًا لمبادئِ النقدِ ومقاييسِ البلاغة ، وصُنْعاً لجيلٍ جديدٍ : ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[1] .

التشبيه في القرآن :

١- العقيدة :

لما كانت العقيدةُ من أخطرِ الأغراض عالَجَها القرآنُ على أَنْحَاء مختلفةٍ ووجوهٍ جَمَّةٍ ، وقد آثرنا تقسيمَ ما ورد في الكُفْرِ وأثره إلى مجموعات ليسهل الإيضاح والتحليل .

قال الله تعالى :

١- ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (البقرة:١٧،١٨) .

٢- ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة:١٧١) .

٣- ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ (الأنعام:٣٩) .

٤- ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (الأنفال:٢٢).

٥- ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنفال:٥٥) .

٦- وفي قصة النضر بن الحَرْثِ ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (لقمان:٧) .

---

(١) كتب هذا البحث ١٩٧٧م وكان له بحمد الله أثرٌ طيب ، فقدمت بحوث تتناول قضايا البلاغة في القرآن الكريم لا تبعد عن منهجنا ولله الحمد والمنة .

٧- ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان:٤٤) ﴿ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾(الأعراف:١٧٩) .

٨- ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾

(محمد:١٢) .

٩- ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾ (المدثر:٤٩-٥١) .

١٠- ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ (الأعراف:١٧٥، ١٧٦).

والكافرُ بالله الصَّادُّ عن سبيله الضالُّ عما خُلِقَ له ذاهبُ العقل مُشَوَّهُ الفِطرةِ مطموسُها وَميِّتُ الوجدان شاذٌّ نافِرٌ بينَ الخلق ؛ ولذا قَدَّمَهُ القرآنُ في معارضَ شَتَّى حِسِّيَّةٍ تتلاءَمُ وحالَهُ وطَبْعَه ، ومع التلاؤم بين التشبيهات في المعاني العامة ، نجد لكل تشبيهٍ خصوصيةً تتناسب وسياقَهُ ومقامَهُ والأغراضَ العامَّة في السورةِ وطريقةَ الصياغة فيها .

والآية الأولى ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ .

ونلاحظ هنا دخولَ كاف التشبيه على « مَثَل » واقع مشبهًا به بمعنى الحالِ الغريبةِ ؛ إذ لا يَجتَمِعُ أداتا تشبيهٍ ، ولم يرد في القرآن اجتماعُ أداتي تشبيه إلا في قوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ وأكثر أهل العلم على زيادة الكاف ، وزيادةُ الحرفِ في القرآن قول أَبْطَلَهُ كثيرون من القدماء والمعاصرين بأدلَّةٍ دامغةٍ[1]، بل إنَّ الكاف هنا لغرضٍ بياني وعقليٍّ وعَقَدِيٍّ ؛ وذلك أنه لو قيل :

(١) راجع تفسير الطبري والرازي وابن القيم وابن الأثير والرافعي والإعجاز البياني - بنت الشاطيء - والنبأ العظيم - دراز .

ليس مِثلَهُ شيء ، لكان نفيًا للمِثلِ المُكَافِئ ، التامّ المُماثلةِ فَحَسْبُ ، وحتى لا يَدِبَّ إلى النفسِ دبيبُ الوَسَاوِسِ بأنَّ هناك رُتْبَةً تَلِي رتبةَ الأُلوهية قد تكون للملائكةِ والأنبياءِ أو الجنّ أو قُوى الطبيعةِ لها شَبَهٌ ما في القُدْرَةِ أو العلم أو الخلق جاء هذا الحرف «الكاف» إقصاءً ونَبْذاً لكل ذلك كأنه قيل ليس هناك شيء يشبه أن يكون مِثْلاً له فضلاً عن أن يكون مِثلاً على الحقيقة ، وهذا من باب التنبيه بالأدْنَى على الأعلى ، على حَدِّ قولِه تعالى ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ نهيًا عن يسير الأذَى صريحًا ومما فوقَ اليَسِيرِ من باب أَوْلَى ، وثَمَّ طريقٌ أدقُّ مسلكًا لو أنك حين تريدُ نَفْيَ البُخْلِ عن إنسانٍ ما فتُخْرِجَ الدَّعْوى بدليلِها قائلاً : مِثْلُكَ لا يَبْخَلُ ، تريدُ أنَّ من كان على شِيَمِكَ وصفاتِكَ لا يَبْخَلُ ، على سبيل الكناية تصويراً وتدليلاً ، ومبالغةً في إثبات الكرم ، وعلى هذا المنهج وُضِعَتِ الآيةُ الكريمة قائلةً «مِثْلُه تعالى لا يكونُ له مِثْلٌ» ، تعني أن من كانت له تلك الصفات الحُسْنَى لا يمكن أن يكون له شَبَهٌ ولا يتسع الوجودُ لاثنين من جِنْسِه ؛ ولذا جيء بلفظين كلٌّ منهما يؤدي معنى المماثلة ليقوم أحدُهما ركنًا في الدَّعوى والآخرُ على طريق الكناية والبرهان ، فالكاف مما أفادت تشبيه لما دخل عليها التي تأدى به التوحيد بالله ولفظ المثل المعوج به في مقام لفظ الجلالة أو غيره منه على الكناية أو برهان هذا التوحيد[1] ، وهنا ملمح آخرُ هو أنَّ هناك فرقًا دقيقًا في الألفاظ الموضوعة للمشابهة نبَّه إليه الراغب ، فالشَّبَهُ فيما يشارك في الكيفية ، والمساوى فيما يشارك في الكمية ، والشكلُ فيما يشارك في القدر والمساحة ، والمَثَلُ عَلَمٌ في جميع ذلك ؛ ولهذا لمَّا أرادَ اللهُ تعالى نَفْيَ التشبيهِ من كلِّ وجهٍ خصَّهُ بالذِّكْرِ فقال ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[2] ، وعموميةُ المِثْلِ ادِّعَاءٌ لا حقيقةٌ ؛ لأن

---

(١) راجع النبأ العظيم ص ١٢٦ - ١٢٨ .

(٢) مفردات الراغب ص ٤٨٢ .

التشبيه فيه دلالة الشبه ووجه الشبه مجازًا وادعاءً تخييلاً أو التباسًا كالشبه والاشتباه في وجه الشبه ، ثم تفرد الطرفين فيما وراء ذلك ، واستعمالُ « مِثْل » في التشبيه أدْخَلُ في المماثلةِ والشخوصِ والمثولِ والمساواةِ في بعضِ الأمور والمعـانـي ، وقـد جاءت مِثْلُ بالكسر أداةَ تشبيهٍ فـي القرآنِ مفردةً أو مضافةً فـي أربـعـةٍ وسبعـيـنَ مـوضعًا ، كـقـولـه ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ (البقـرة:٢٢٨) ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَالِكَ ﴾ (البقـرة:٢٣٣) ﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ (البقرة:٢٧٥) ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ (النساء:١١و١٧٦) ﴿ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ ﴾ (المائدة:٣١) .

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ (آل عمران:١٤٠) ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ (النساء:١٤٠) ﴿ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ﴾ (آل عمران:١٣) ، وقد أدت معنـى المشابهة والمماثلة فـي الطرفين ، سـواء كانا محسوسين قَدْراً أو عـددًا أو شـكـلاً أو لونًا أو كمـيـةً ومـا إلـى ذلك مـن ضـروب الـحِـسِّ ، أو معقولين أثرًا ووصفًا أو أكثر ، فالمِثْلُ إذاً أعمُّ من الشِّبْهِ ، وأدَلُّ على تقاربِ الطرفين ، في الوجه ، وأقربُ إلى التساوي في هذا الوجه ، أمَّا المَثَلُ بالفتح مفردًا غيرَ مضافٍ أو مضافًا أو مجموعًا فقر جاء بمعنى الصِّفَةِ العجيبةِ والنبأ الغريبِ والحال المُدْهِشَةِ التي يُتَمَثَّلُ بها على سبيل الاستعارة في ثمانيةٍ وأربعين مـوضعًا ، كـقـولـه تـعـالـى ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ (البقرة:١٧) ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ ﴾ (البقرة:٢٦٤) ﴿ سَآءَ مَثَلاً ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ (الأعراف:١٧٧) ﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ (إبراهيم:٤٥) وهكذا ، وجاء (مَثَلُ) بالفتح مرادًا به التشبيه العجيب الغريب لا التشبيه على إطلاقه مفردًا أو مجموعًا في خمسةَ عشرَ موطنًا ، كقوله سبحانه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلاً ﴾ (البقرة:٢٦) وجاء هذا التعبير ﴿ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ مرادًا به التشبيه العجيب

إثر تمثيل ضربه الله سبحانه فيه غرابة وجمال في ثلاثة مواطن ١٧ الرعد و٢٥ إبراهيم ٣٥ النور ، وغُيِّرَ التعبيرُ قليلاً إِثْرَ مَثَلِ العنكبوت ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ (العنكبوت:٤٣)، كما جاء مَثَلُ بالفتح «وأمثال» في جانب الله على اعتقاد المشركين بمعنى المساوي : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ (الزخرف:١٧). والأمثال: جمع مَثَلٍ بالفتح هنا ، كما جاء جمعُ مِثْلِ بالكسر في المساوي أيضًا كقوله تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ (الأنعام:١٦٠)، ﴿ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾ (الإنسان:٢٨) ، ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ (الأنعام:٣٨)، وقد جاء المثل هكذا بمعنى المساوي في أحد عشر موضعًا[1] .

خلاصةُ هذا البحث :

أ- أن مِثْلَ بالكسر أداةُ تشبيه دائمًا في القرآن ، أعمُّ أدوات التشبيه معنى واتساعا في المفهوم حسيًا أو معنويًا ، دالة على التحقيق والتقارب التام بين الطرفين كما يقتضي المقام ، ولهذا الاستعمال المطَّرِدِ نرد رأيا للراغب في جعله المِثْلَ بمعنى الصفة في الآية ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ وإن كان نَقْلُهُ بلفظ «قِيلَ» دلالة ضَعْفِهِ[2] .

ب - لا يجتمع أداتا تشبيهٍ في أسلوبٍ واحدٍ وإلا كان عبثًا ، ولم يجئ في القرآنِ إلا مرةً في إثباتِ الوحدانيةِ ونَفْيِ مُطْلَقِ الشِّرِكَةِ وأسبابِها وإخلاصِ الوحدانية لله تعالى ، وقد جاء منفيًا ، والتحم التشبيه المنفيُّ والكنايةُ في إخراجه ؛ دليلاً عقليًا في صورة عجيبة مؤثرة .

---

(١) راجع معجم ألفاظ القرآن الكريم ـ مجمع اللغة ٢ مادة مثل ص ٤٢٠ وما بعدها .
(٢) مفردات الراغب ص ٤٨٢ .

جـ - لم يجئ المَثَلُ بالفتح أداةَ تشبيهٍ إلا مُقيّدًا بالمثل الغريب ؛ ومن هنا عَدَّهُ بعضُ البلاغيين أداةَ تشبيهٍ ، وليس هذا دائمًا ، بل جاء بمعنى القصةِ والنبأ والتمثيلِ العجيبِ ؛ لذا صَحَّ دخولُ حرف التشبيه على كثيرٍ منه مرادًا به هيئةَ المشبه به وصفتَه وحالَه الغريبة ، وقد جانب التوفيقُ بعضَ من ألّفَ في البيان دون استقصاء لهذا الموضع ، فَجَعَلَ الأمثال في قوله تعالى ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ أداة تَشبيهٍ[1] ساهيًا عن الكاف وأن الأمثال بمعنى الهيئات كما يؤكد المقام والتناسب بين الطرفين وقد اتبع المؤلف بعضَ من ألّفَ في بلاغتنا العربية قديمًا .

د - جاء المِثْلُ بالكسر مجموعًا بمعنى المساواة وكذلك المَثَلُ بالفتح ، ولعلك تلحظ أنَّ جانبًا من المساواة موجودٌ على ضربٍ من التقارب أو المبالغة والتخييل في هذه المادة .

والمَثَلُ في آية البقرة ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾[*] عنوان التمثيل المركب مصورًا حال الكفار الذين اشتروا الضلالة بالهُدى وقد جاءهم رسول الله بالبينات مضيئةً عمَّتْ وشاعتْ ثم لم يُقْبِلُوا عليها باقين على ضلالهم ، بهيئة من حَشَدَ أمره في البيئة الصحراوية فأشعل نارًا عظيمةً أضاءت ما حولَه ، أَقْبَلَ عليها قومٌ ونَفَرَ منها إلى الظلمات الآخرون ، فذهب نورُهم وظَلُّوا في حالك الظلمات ، فالتشبيه مركب قُصِدَ فيه إلى مقابلةِ هيئةٍ بهيئةٍ ، ولا يعني هذا المقابلةَ اللفظيةَ الأحاديةَ بين ما قبل الكاف وما بعدها ، بل إنَّ الاختلافَ والتركيزَ والإيجازَ والطَّيَّ وعدمَ الترتيب بين جزئيات الصورة ، أعني التقديم والتأخير ، مَبْنِيٌّ على أنَّ المشبه به ليس هو مدخولَ الكاف ، بل قصة متعددة المراحل والفصول ، وإن كان ما يلي الأداة له دَوْرٌ خطيرٌ ومُهِمٌّ في الصورة

---

(١) راجع البيان للدكتور عبد الفتاح لاشين ص ٣٧ نقلاً عن بعض القدماء .

(*) عودٌ إلى الحديث عن آية البقرة بعد استقراء مواضع مُثُل ومِثْل في القرآن .

لإنبائها عليه ؛ وذلك إثارةً لليقظةِ والتأمُّلِ والتشوُّقِ إلى تمامِ الكلامِ واستيعابهِ والغوصِ وراءَ فوائده ، ومِثْلُ هذا كثيرٌ في أمثال القرآن وتصويرات البلغاء ، وإذا كان جَمٌّ من العلماء ، من أمثال الرَّاغِبِ والزَّمَخْشَرِيِّ وابْنِ أَبِي الإِصْبَع والعَلَوِيِّ[1] وتابَعَهُم بعضُ المعاصرين[2]، جَعَلُوه في المنافقين أو مَنْ كان لديه بعضُ الخيرُ ، فالحَقُّ أنه مَثَلٌ في الكافرين ، كما ذهب إليه الدكتـور محـمـد عبد الله دراز ، ويُرَجِّحُ رأيَهُ الاستعمالُ القرآنيُّ ذاتُه باطِّرَادِ وصفِ الكافـريـن بأنـهـم ﴿ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ و ﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ ﴾ ، أمَّا المَثَلُ بَعْدَهُ ﴿ أَوۡ كَصَيِّبٍ ﴾ فهو في المنافقين ، والفحصُ الدقيقُ في محتوى المثالين وما حسم به ما يعالج في صدورهم يبين ملاءمةَ كُلٍّ للمشبه ؛ وعلى هذا فمعنى المَثَلِ الأوَّلِ : أَنَّ الهَادِيَ الأَعْظَمَ ، صلواتُ الله عليه ، قد استوقد شُعْلَةَ الهدايةِ فعالجَ إيقادها أمام الفتن والمقاومات ، فلَمَّا أوقدها وأضاءت ما حوله رغمت أنوفُ أهلِ الباطل ، فانطمست أبصارُهم ، وكانوا كُلَّمَا زادت تألقًا وإشراقًا ازدادوا ظلمةً وانتكاسًا[3]، وانظر تركيب الصورة وما توحيه قال : ﴿ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارًا ﴾ تفخيمًا ، والفِعْلُ « اسْتَوْقَدَ » وحيدٌ في القرآن لم يتكرر ، مع أن الفعل « أَوْقَدَ » وما تصرف منه جاء في الإيقاد الحقيقي أو المجازي ، نجد أن السين والتاء أفادت الحَشْدَ والجمعَ والاهتمام النفسيَّ ؛ تصويرًا لمعاناة النبي ﷺ في الدعوة ، ثم تصويرًا لعظمةِ النار ، أو كنايةً عنها ، وقوله « أَضَاءَتْ » بالهمزة مع التعميم في المفعول (مَا حَوْلَهُ) كنايةٌ عن شِدَّةِ سُطُوعها وقوَّتِها في دائرة وسيعة ، ورَبْطُهُ ذهاب اللهِ بنورهم بقوَّةِ الإضاءة ، يوحي بقوة ضلالهم به ؛ ولذا أَسْنَدَ « ذَهَبَ » إلى « الله » وأدخلَ الباءَ على النور ، كأنـهـم لم يضلوا إلا بعد انتشار النار عنادًا أو طبعًا ،

(١) راجع مفردات الراغب ص ٤٨٣ والكشاف ص ٤٥١ وبديع القرآن ص ٦١ والطراز ٣٧٨/١ .

(٢) راجع التعبير الفني في القرآن دكتور بكرى أمين ص ١٩٣و٢٣٠ .

(٣) راجع النبأ العظيم ص ١٦٩ ، ١٦٨ .

وذهابُ النورِ كلِّه يفيد القهر والخِذْلانَ والطَّمْسَ ، وعَبَّرَ بالنور دون ذهاب الضَّوْءِ ؛ لأنه يلزم من ذهابه ذهاب الضوء دون العكس ، وقد جسمت الصورة بشغلها حاسة البَصَرِ واعتمادِها على التَخيُّلِ والتذكر وتداعي المعاني والحركة مع جمعها بين الإضاءة والنور ومقابلتها بذهاب النور والظلمات .

ثم في نفي الإبْصَارِ وذهاب النور مع قوة الإشاءة عن تعمُّدٍ وإعدادٍ ، كُلُّ ذلك جَسَّمَ عقيدةَ الكفارِ الضالةِ ، وأخرجَ المعنويَّ المعقولَ فيما يُرَى ويُلْمَسُ تأكيدًا وفضحًا لأعماقهم وسُخْراً بهم، ثم ترقى بالصورة مؤداة بالتشبيه المتعدد : (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ) دون ذكر أداةٍ أو شَبَهٍ ؛ قوةً في التجسيدِ وتحقيقِ المعنى ؛ وذلك أَنه ضُرِبَتْ بينهم وبين الحق حواجزُ لا ينفذون منها ، وقد فقدوا أَهَمَّ الحواس التي تربطهم بالواقع وهي حواس الإدراك : من سمعٍ ونطقٍ وبَصَرٍ ، فهو طَمْسٌ وطبعٌ لا فكاك منه ، أو خرج من عالم الحيوان المدرك إلى عالم الجماد ، والوجهُ وهو عدمُ الاهتداء أو عدم الإدراك عامٌّ في الثلاثة خاص في كل واحد ، ويجوز أن يكون تشبيهًا واحدًا للكفار بمَنْ جَمَعَ بين العَمَى والصَّمَ والبُكْم أو فَقَدَ كلَّ الحواس فهو معزولٌ عن واقعه لا ينتمي إليه ، غريبٌ عن دنياه لا يتصل منها بسبب ، وانظر تصعيدَ المعاني والتناسبَ والترقِّيَ من الخطيرِ إلى الأخطر ، ثم التناسب ثانيًا في نهاية التشبيه الأول بقوله (لا يُبْصِرُونَ) والثاني بقوله (عُمْيٌ) تقريرًا لحقيقةٍ هي التواءُ الفطرة وتشويهُ الطبع ، والوَجْهُ في الصورتين عَقْلِيٌّ كما ترى ، والآيةُ الثانية ﴿ **وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾ .

نلحظ فيها الخطم وحذفَ شيء في جانب المشبه أو المشبه به اكتفاءً بما يقابلهُ ونصبِ دليلٍ عليه إبقاءً على قليلٍ من الألفاظ واستثمارًا لها بدقة بحيثُ قَدَّمَتْ مشهدًا مليئًا بالحركةِ واللَّونِ والصوتِ والاختلاطِ وانفعالاتِ الزَّجْرِ

الثائرةِ وانقيادِ القطيعِ الحَذِرِ الخائفِ ، وهذا التصويرُ إنما يجسِّم ويجسد معانيَ معقولةً هي ضلالُ الكفارِ ؛ ذلك أنه يشبِّهُ داعيَ الكفارِ مع الكفارِ كمثل راعي الحيوانات يَنْعِقُ بها زجرًا وتوجيهًا ؛ إنها لا تدرك إلا جَرْسَ النغمة ، ودَوِيَّ الصوتِ ، دون فَهْمٍ أو فقهٍ أو استبصارٍ تَعَوُّدًا على الدعاء ، فهم قطيعٌ مَن الماشية لا عَقْلَ له ، وقد أَكَّدَ هذا الفَحْوَى بقوله ﴿ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ، وأجاز الزمخشري نقلاً أن يكون مَثَلُهم في اتِّبَاعِهِمْ وتقليدِهم آباءهم كَمَثَلِ البهائمِ التي لا تفهم إلا ظاهرَ الصوتِ ولا تفهم ما تحته ، وقِيْلَ : ومَثَلُهُمْ في دُعاءِ الأصنامِ كالناعق بما لا يسمع ، لكِنَّ قولَه «إلا دُعاءً» لا يساعد عليه»[1] ، والرأيُ الأخيرُ اعتمد عليه الشهيد «سيد قطب» ، واقتصر عليه وجعل الآية تصويرًا وإخراجًا للمعاني الذهنية في صور حسيةٍ ، وهي هنا تصور الآلهة لا تسمع ولا تجيب[2] ، لكنَّ قولَه ﴿ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ وهو سماعُ الصوت دون تمييز وقوله ﴿ ٱلَّذِى يَنْعِقُ ﴾ لأنه مناسب ومصور لتكرار الدعوة وتواليها دون عبادتهم آلهة ، والذَّمُّ في الآية للكفار ، وهذا يتناسق مع عَجُزِ الآية ، ومع اطِّرادِ جَعْلِ الكافرين من الحيوانات في الاستعمال القرآني ، وانظر ﴿ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ﴾ كناية لطيفة ساخرة عن الحيوان ، وهذا التركيز في الإيجاز ملأ الصورةَ حركةً ونبضًا ، ورَسَمَ البسمةَ على الشفاه مصوِّرَةً القطيعَ ماثلاً في الخيال في استسلامها وغبائها وخضوعها لغريزتها ، ثم أَتَمَّ الصورةَ ترقيًا في الطَّمْسِ والذَّمِ والإظلامِ ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ ﴾ بهذه الثلاثة تشبيهًا مفردًا أو متعددًا بليغًا بوجهِ شَبَهٍ عَقْلِيٍّ ليبين أن الحيوانات تفُوقُهم في الإدراك ، أو أنهم يفوقون السوائم ضلالاً وحيوانيةً ، والتذييلُ بَعْدُ ﴿ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ بعد تَعَدُّدِ التصويرِ يصبح واقعًا موقِعَهُ تمامًا حقيقةً ساخرةً مؤثرةً .

---

(١) الكشاف للزمخشري ١/١٦٠ .

(٢) انظر : التصوير الفني ص ٢٩ .

وانظر الآية الثالثة : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ وتناسبًا مع الدلالة القرآنية أن المشبهَ مفردٌ والمشبهَ به متعددٌ وهو ما يسمى تشبيه الجَمْع ، والأفضلُ أن يكون مفردًا جامعًا بين الصَّمِّ والبُكْمِ والعَمَى ، وقد استعاض عن العمى بالإشارة «في الظُّلُمَاتِ» بهذه الظرفية المتمكنة ، يعني تمكنهم من الضلال ، أو احتواء الضلال لهم بأنها كناية عن العمى ، فهي كناية متفرعة عن استعارة ، وكلُّ هذه الصورِ سلبت الكافرين كلَّ وعيٍ وإدراكٍ ، نستطيع أن نقول إنَّ سورة البقرة وضعت للكافرين سماتٍ وملامحَ لا تنفك عنهم حِسًّا أو طبعًا وخيالاً ، فهم كما قدَّمهم القرآنُ دائمًا وعلى كلِّ حال : صُمٌّ وَبُكْمٌ وَعُمْيٌ وفي ظلام وحيوانيةٍ متدنيةٍ ، ونقرأ الآيتين ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فترى أن تصويرهم بالصم والبكم أصبح وصفًا لازمًا كملامح الأجناس والأنواع ، فهو قد استعار الصم البكم للكافرين ثم شبههم بشر الدواب احتقارًا وذمًّا وتهكمًا جعلهم من جنس البهائم سلبًا للعقلِ والتمييزِ ثم جعلهم شَرَّهَا[1] على الإطلاق وتأمَّلْ قولَه «عِنْدَ اللهِ» وما فيها من سَطْوَةِ الغضبِ والتحقيرِ ، ثم وضع المقياس الصادق في تميز البشر ، وقد وضع في الآية التالية ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ موضعَ الصُّمِ البُكْمِ ليوضح أن الصفة والموصوف أصبحا متلازمين طبعًا متميزًا وواقعًا ، والتعبيرُ هنا متناسق مع المعاني المرادِ تصويرها فساعد على إكمال معالم الصورة ؛ ذلك أنَّ الدواب في أصل وضعها لما يَدُبُّ على الأرض ، وهو شامل للإنسان وغيره ، لكنها تُطْلَقُ على الحيوان ، وهو ما يتبادر إلى الذهن ؛ لأن للعادة حكمها في الاستعمال ، فاختيار كلمة الدواب مضافةً إلى شَرٍّ وتجسيم الحالة التي تمنعهم من الانتفاع بالهُدَى بوصفهم «الصم البكم»

---

(١) راجع الكشاف ٢/١٦٣ .

كلاهما يُكَمِّلُ صورةَ الغفلة والحيوانية التي يريد أن يرسمها لهؤلاء الذين لا يؤمنون لأنهم لا يعقلون»[1].

وحين أطلق الدوابَّ جَعَلَهُم شرَّها ، فهم شَرُّ المخلوقات ، وحين يخصص ماله سَمَة خاصة تجعله متفردًا كقوله تعالى ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ ، ﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ ، ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ .

ونلحظ تدرُّجَ التصوير فقد شَبَّهَهُمْ بالأنعام على العمومِ تشبيهًا حسيًّا في الغفلةِ وعدمِ التمييز ، لكِنَّهُ وَفَّرَ للأسلوبِ قُوَّةً جعلته نابضًا ، فهم أنعامٌ على سبيل القَصْرِ والحَصْرِ وليسوا بشرًا ، وأومأ بالإشارةِ البعيدةِ إليهم تجسيمًا وتحقيرًا ، ثم تَرَقَّى فَأَضْرَبَ عن التشبيه إضرابًا انتقاليًا وجعلهم «أَضَلَّ» على العموم أو «أَضَلَّ سَبِيْلاً» ؛ ذلك أن الأنعامَ تُبْصِرُ منافِعَهَا ومضارَّها فتلزم بعضَ ما تبصره ، وهؤلاء أكثرُهُم يعلم أنه معاند ثم يقدم على النار[2].

وفي الآية الأخيرةِ تُرَكِّزُ الصورةُ على أبرزِ ما في الأنعام وهو المتعةُ والأكلُ ، وقد رسم لهم التشبيهُ صورةً دقيقةً ؛ ذلك أنهم في الغفلة والإقبال على التمتعِ وعدمِ التَّدَبُّرِ في غايةِ الوجودِ الإنساني والجزاءِ المنتظر كالأنعام في مسارحها ومعالمها تقبل في غريزة وفَهْمٍ غافلةٌ عن العقاب وعما سِوَى الطعام والشراب[3]، والبراعةُ في جعل الأفعال مضارعةً تصوير لحركة الأكل والمضغ الماثلة أمام العيون ، وتصويرًا لما يصاحبها في طريقة الأكل ثم تركيزًا على جانبي التمتع والأكل ، وهو ما يعيش به الكفارُ المترفون ، كالطبع لا يفارقهم على وجه الزمان ، والصورةُ بهذه المثابة ترسم نموذجًا بشريًّا تلقاه دوامًا . ومن

---

(١) انظر : التصوير الفني ص ٧٧ .

(٢) الكشاف ٢/١٤٠ ، ١٤١ .

(٣) انظر التصوير الفني ص ٧٧ .

التلوين في الغرض والذم ورسم صورة عجيبة قولُه تعالى ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ والطرفان مفردان محسوسان مقيدان ، وغرابةُ التشبيه من رسم هذا النموذج الكامل للكافرين المعرضين عن الهدى أنهم كالحُمُرِ الجادّةِ في نِفَارها وطِرَادِها طبعًا في ذاتها ؛ ولذا قال «مُسْتَنْفِرَةٌ» على الفاعل ، كأنها تطلب النِّفَارَ من نفوسها في جمعها له وحملها عليه[1]، وحُمُرُ الوحش مَثَلُ النِّفَارِ والعَدْوِ عند العرب ؛ ولذا أكثرت فيها التشبيهات ، ثم بلغ النِّفَارُ نهايتَه حين رَكِبَهَا الخوفُ على حياتها من الأسدِ الصَّائِلِ أو الصياد المُخَاتِل ، فهي في اضطرابٍ وفزعٍ وعدوٍ يكاد يقتلها ، وانظُرْ فقد صَدَّرَ الصورةَ باستفهام إنكاريٍّ مثيرٍ لكثيرٍ من النُّفُورِ منهم ، ثم أتى بصورةٍ غريبةٍ لنفورهم ، تُحِسُّ بالنِّفَارِ والنُّفُورِ من حروفها وجَرْسِها ، وهذا الجَرْسُ الذي تكررت فيه الفاء والراء وتوالي السَّكَنَاتِ والحركات ، كأنك تسمع صوت عَدْوِها وارتطام أظلافها بأحجار الصحراء ، ومن كلماتها ومدلولتها ، ومن وَقْعِها الخارجي ، وارتباطِها الذهنيِّ ، ومع الذهن تشترك حاسةُ النظر ومَلَكَةُ الخيالِ وانفعالُ السُّخْرِية وشعورُ الجمال الذي يرتسم من هذه الصورة الطبيعية وما فيها من حركةٍ دائبة واندفاع قاتل لحُمُرٍ وحشيةٍ يتبعها القسورةُ الرهيبُ ، والصورةُ مرسومةٌ بِقَدَرٍ كلما زدتها نَظَرًا زادتك سحرا[2].

وهذه آيةٌ أخرى تُقَدِّمُ عَالِمًا اسمُه «بلعام» من بني إسرائيل ، كَفَرَ بالتوراة بعدَ عِلْمٍ ، وكيف صورَّه القرآن هو ومَنْ على مِنْوَالِه ممن هُيِّئَتْ له المعرفةُ فَفَرَّ منها وعاش هابطًا يطاردُه هواه ، فلا هو استراح بالغَفْلَةِ والجهلِ ، ولا هو نَعِمَ بقَرَارِ المعرفة وسكينتها ؛ نزولاً به إلى وضع مُشِين : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ

---

(١) انظر : الكشاف ٥٢٤/٤ .

(٢) أشار إلى بعض ذلك صاحب التصوير الفني ص ١٩٦ .

ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ .

وقد أعان على رسم الصورةِ عديدٌ من الألوان البلاغيةِ كالاستعارة في قوله «فَانْسَلَخَ» وما تفيد من خروج عن الآيات والتخلُّصِ منها ، مع الظل الذي يلقيه الفعل «انْسَلَخَ» ؛ لأن الانسلاخَ حركةٌ حسيةٌ قويةٌ ، والطباقِ المصور بين مَنْعِ الآيات والانسلاخِ منها ، والتعبير (أَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ) وما يوحى من دقةٍ وسخريةٍ ، فلقد أصبح الشيطانُ من أتباعه وتلاميذه فكيف هو ؟ وتصوير الطباق التالي لحالته الفكرية : نَشَاءُ له رَفْعاً فيَخْلُدُ هو إلى الأرض ، والإخْلادُ : حركةٌ حسيةٌ موحيةٌ فيها إصرارٌ وتَثَاقُلٌ وانحطاطٌ ، ثم طَبَّقَ المَفْصِلَ بهذا التصوير الساحرِ وهذا التمثيل الذي جعله نموذجًا للذُّل والضِّعةِ ، إنه الكلب في أَخَسِّ أحوالِه وأَذَلِّهَا ودَوَامِ لَهْثِهِ سواءٌ طُرِدَ أو تُرِكَ فهو لاهث أبدًا ، «وفي الصورة ـ كما يقول سيد قطب رحمه الله ـ تحقيرٌ وتعذيرٌ يحقق الغرض الديني ـ ولكنها من الوجهةِ الفنية صورةٌ شاخصةٌ ، فيها الحركةُ الدائبةُ ، وهي صورةٌ معهودةٌ ، فهي في تثبيت المعنى المراد بها أشدُّ وأقوى ، وهكذا يلتقي الغَرَضُ الدينيُّ بالغرض الفني كما في جميع الصور التي يرسمها»[1] ، بقيت في المجموعة ما حكاه القرآن عن النَّضْر بن الحَرْثِ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ، والمعنى الذهني : وهو الكفرُ والضلالُ جاء في تصويرٍ متحركٍ وتشبيهين واستعارةٍ تهكميةٍ ، فالتعبير الحقيقي وَلَّى متكبرًا مسرعًا موليًا في تكَبُّر ، ثم يصور سَمَاعَهُ الآياتِ في عدم التأثر والاهتداء بعدمِ السماعِ تسجيلاً لقُوة الضلال ، ثم يَسْخَرُ به فيصوره بَوَقرٍ في أُذنيه ، ثم ينهى الصورة متهكمًا به لضَعْفِهِ وعدمِ

(١) التصوير الفني ص ٤١ وانظر الكشاف ١٣٩/٢ .

إفلاته من القدرة فيصور الإنذار بأليم العذاب بالتبشير سخريةً نافذةً ، والقرآنُ دائمًا يجعل عدم الإفادة من الهُدَى ـ وهي أمورٌ عقليةٌ معنويةٌ ـ مجسمةً ماديةً في الصُّمِّ والبُكْمِ كما مر أو بالختْمِ والطَّبْعِ والأكِنَّةِ والأقْفَالِ في القلوب والوَقْرِ والحِجَابِ المستورِ في الآذان ، والغطاءِ والسَّدِ والغِشَاوَةِ في العين ؛ تجسيمًا وإبرازًا لضلالهم الخبيء ، تصويرًا علاجيًا وإن كان ذلك من وادي الاستعارة والكناية .

المجموعة الثانية :

قال تعالى :

١- ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ﴾ (الأنعام:٧١).

٢- ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الأنعام:١٢٥).

٣- لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ (الرعد:١٤).

٤- ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (الحج:٣١) .

٥- ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾

(العنكبوت:٤١) .

٦- ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ (الجمعة:٥) .

وكثيرٌ من هذه الآيات يتعمَّقُ البواطنَ والسرائرَ ويُجَسِّدُ مواقفَ ولمحاتٍ نفسيةً وجوانبَ وجدانيةً ، وما يُحِسُّهَا أصحابُها ولا يستطيعون عنها تعبيرًا ، فيمنحُها القرآنُ حياةً وحركةً ، والغريبُ أنَّ ما بين الطرفين بُعْدُ ما بين المشرقين ، وقد جاءت كلُّها في معارضِ التمثيل ، واستعملت « كَأَنَّ » في الخيالي المفترض البعيد الوقوع ، « والكاف » في المنظور الذي يُشَاهَدُ في الواقع ، وهذا ما يجعلك ترفضُ رأيَ صاحب الطراز حين رأى أنَّ تشبيهاتِ القرآن قريبةٌ لأنها أَدْخَلُ في التحقيق وأقربُ إلى التيقين[1] ، على أن اصطلاح القُرْبِ والبُعْدِ في التشبيه ، وجَعْلَ البُعْدِ سَبَبَ المَزِيَّةِ والحُسْنِ دون القُرْبِ - في حاجةٍ إلى مراجعةٍ واستدراكٍ واستيفاءٍ ؛ لأن كل تشبيه في كلامِ البلغاء إنما ينظر إلى مقامه وإلى موقعه من السياق الخاص والعام ، وكثيرٌ من التشبيه القرآني قريبٌ ولكنه مُعْجِزٌ ، لتلاؤمه مع سياقه صوتًا ودلالةً وتصويرًا ، وتلاؤمه مع طبيعةِ السورة في تراكيبها .

والتمثيل في الآية الأولى عند الزمخشري حِسِّيٌّ وَهْمِيٌّ منتزَعٌ من زعمِ العرب وخيالِهم واعتقادِهم أَنَّ الجِنَّ تستهوى الإنسانَ والغِيْلانَ ، تولى عليه في فلواتهم المُهْلِكة[2] ، فالضَّالُّ عن الإسلام المتَّبِعُ للشيطان مع تكرار دعوته إلى الدين فلا يهتدي ، يُمَثِّلُه القرآنُ في صورةِ إنسان ، ضَرَبَ في البَيْدَاءِ ، واستهوته الشياطينُ العديدةُ لا شيطانٌ واحدةٌ ، تُحِيطُه الحَيْرَةُ والتَّخَبُّطُ ، وحيدًا عن أصحابٍ له يدعونه بأصواتٍ مدويةٍ تُنَاسِبُ البُعْدَ وتَرَامِيَ الصَّحْرَاءِ في إلْحَاج ، تُرَدِّدُ أصواتُهم هذه العبارة ذي الحركات الطويلة المفتوحة : « إِلَى الهُدَى ائْتِنَا » ، وهو موزَّعٌ حائرٌ بين شياطينه وأصحابِه ، قائمٌ هناك شاخِصٌ متلفتٌ حيرانُ ، وهذه الصورةُ في الواقع حسيةٌ حقيقيةٌ أو خياليةٌ ؛ لأن عالَمَ الشياطينِ

---

(١) انظر الطراز ٢٨١ ، ٢٨٢ .

(٢) انظر الكشاف ٢٩/٢ والتصوير الفني ص ٤١ .

واستهواءها البشرَ واقعٌ قرآنيٌّ يؤمن به كلُّ مسلم ، وهي صورةٌ مؤثرةٌ مجسِّمَةٌ لمعاني الضياعِ والهلاكِ ومحاولاتِ الهدايةِ الذَّاهبةِ أدراجَ الرِّياح ، وانظُرْ إيحاءات الألفاظ وعَلاقَتَها بالنَّفسِ البشريةِ وعالمِ الشياطين «كاستهوائه» و«الشياطين» و«حيران» و«أصحاب يدعونه» وتجسيم الضلال بالرَّدِ على الأعْقَابِ ، مع الطباقِ ومراعاةِ النظيرِ والتلاؤمِ المعجز ، مع جَعْلِ الصورةِ حَالِيَّةً بأحداثها ، نراها ونسمع اختلاطَ أصواتِهَا ونرى حَيْرَةَ الضاربِ في التيهِ وتلفُّتَهُ المثير .

والتصويرُ الثاني أعجبُ من العَجَب : إنَّ الكافر في تبرمُّهِ وقَلَقِهِ وضيقِ النفس لِشذُوذِهِ عن الفطرةِ وانقباض فؤاده لجفافِ رُوْحِهِ ، تُصَوِّرُ أحاسيسه وما يعانيه في تمثيلٍ حسيٍّ يجعل شخصَه هو جزءًا من هيئةِ المشبه به ، إنَّه يرتفع صَعَداً لا إلى السَّماءِ ولكن في السماء ، وإذا كان الزمخشري[1] ومَنْ بَعْدَه فَهِمُوا منه الامتناعَ ومُزَاولةَ المستحيلِ وعدمَ الإمكان ، فإنَّ الكافرَ يتكلَّفُ أمرًا لا يطيقه ، فلا بأس أن يكون ما حققته البشرية من تقدُّمٍ علميٍّ مُعِيْنَاً على فَهْمٍ آخر ؛ ذلك أنَّ الغلافَ الغَازِيَّ المحيطَ بالأرضِ يتناقصُ منه «الأوكسجين» كلما ارتقينا عن سطح الأرض حتى نَصِلَ إلى نقطةٍ يكاد ينعدم تمامًا ، ومن يَصْعَدُ في هذه الحال تضيقُ أنفاسُه ويضطرب نَبْضُه ويحس الاختناقَ والكَرْبَ والألمَ حتى يُهْلِكُه ، وهذه أمورٌ أصبحت ممن بَدَهِيَّاتِ العلم ، وبناء الفعل (يَصَّعَّدُ) مَضَعَّفاً مضارعًا يصور المعاناةَ والدَّفْعَ والعُنْفَ والحركةَ الدائبةَ التي لا تكاد نلمح لها مدى ، إنها صورةٌ ما ـ أبدًا ، حَيَّةٌ دائمًا ، اختلط فيها المعقولُ بالمحسوس بالمتخيل مع فيضٍ من الظلال تمتد امتدادَ الشعور الإنساني .

ومثلها على الطريق العكسي هذه الصورة ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ وقد أجاز

(١) انظر : الكشاف ٢/٥٠ .

الزمخشري أن يكون التشبيه مركبًا ومفرقًا[1]، والواقع أن الهيئةَ مقصودةٌ هنا على عادة القرآن في ذِكْرِ أهمِّ أجزاء المشبه ثم إِتْبَاعِهِ بصورةٍ كاشفةٍ مثيرةٍ ، وقد طوى صفات المشبه تحت قوله ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾ لفظاعةِ الشركِ وكونهِ أساسَ كلِّ شَرٍّ ، يعني نافرًا عن الدين متتبعًا هواه لابقاء ولا استمرار ؟ محقق الهلاك والضياع ، ثم اقتضب ذلك دالاً عليه بسببه وهو الإشراك مصوّرًا له بصورةٍ سريعةِ الخطواتِ وعنيفةِ الحركات كما يقول سيد قطب[2] ، أو بالتعبير البلاغي بمركبٍ تخييليٍّ عجيبٍ حتى في عصرِ الفضاء ، وانظر إلى تركيب الصورة فأصدرها بكأن القوية التشبيه إيذانًا بالربّط بين متباعدين ، وبالتخييل القوي ، ثم الفعل « خَرَّ » بالماضى دون سَقَط أو وَقَع دلالة على قوة الإلقاء والتَّرَدِّي ، وهكذا في وهضةٍ يَخِرُّ من السماء من حيث لا يدري أحد ، ثم تباطأت الصورةُ لحظةً لتمثل هذا المشهد حاضرًا أبدًا بالفعل المضارع « تخطفه » بما يفيد من حركة عنيفة ودوام تَتَبُّعِ السقوطِ مباشرةً وهي طيورٌ كاسرةٌ تتلقفه أو تتخطفه ، وهو هَيِّنٌ ضعيفٌ ضائعٌ وحتى لو نجا من الطيور فهناك الريح . « وهذا اللفظ يَرِدُ كثيرًا مُفْرَدًا في العذاب ، وقد ورد تسعَ عشرة مرةً في القرآن بمعنى العذاب إلا في موضع واحد هو آية الشورى ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ﴾ فهي هنا نِعْمَةٌ ورحمةٌ فالقاعدة أغلبية كما يقول الإمامُ أحمدُ بنُ المُنَيِّرِ في الانتصاف على الكشاف[3]، وقلنا كثيرًا لا غالبًا مراعاةً للقراءات التسع وأن كثيرًا منها قرأ الرياح بالجمع .

فالرِّيحُ بما فيها من هلاكٍ تَهْوِي به في المهاوي المتلفةِ أشْلاءً متناثرةً ، وانظر إلى الكلمات وما ترسم من إيحاء وما تتناسق مع صورة الهلاك وتحققه :

---

(١) الكشاف ١٢٢/٣ وراجع الطراز ٢٧٢/١ .

(٢) انظر : التصوير الفني ص ٤٠ .

(٣) انظر : الانتصاف ١٧٨/٤ هامش ٢ .

تَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ـ تَهْوِي الريح ـ سحيق ، وكيف وفَّرَتِ العنفَ والإثارة ، وجعلت الهلاك مضاعفًا محققًا في كلماتٍ قصار ، وإذا كان العقلُ يَحَارُ في مدلول الصورة التمثيلية ، أهي رَمْزٌ للضياع والهلاكِ ، أم إِيَماءٌ إلى انبتات الجذر ، وعدم الفرار ، أو هي وحيٌ بسوءِ المآل والشكِّ والحَيْرَةِ ، والصورةُ جديدةٌ دائمًا ، فيها ككلِّ الصورِ القرآنية شيءٌ من الغموض مُحَبَّبٌ يَذْهَبُ فيه الفكرُ والخيالُ كلَّ مذهب ، مع تكوينها من عناصرَ متجاذبةٍ متدافعةٍ لا تسكن ولا تهمد ولا تنتهي ، والمشركُ أبدًا موجود ، وهذا من أسرار الإعجاز .

ويقدم التشبيه لآلهتهم من الأصنام صورتين في منتهى الطرافة والروعة ، الأولى قولُه تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

يقول الزمخشري « الغَرَضُ تشبيه ما اتخذوا مُتَّكَلاً ومُعْتَمَدًا في دينهم ، وتَوَلَّوه من دون الله بما هو مَثَلٌ عند الناس في الوَهَنِ وضَعْفِ القوةِ وهو نَسْجُ العنكبوت »[1] ونلحظ هنا :

١- التشبيه تمثيلي فيه غرابةٌ وبُعْدٌ وعجب ؛ ولذا جعله مَثَلاً ، وعَقَّبَ بقوله ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ يعني التشبيهات العجيبة .

٢- كرر لفظ العنكبوت مرتين والبيت مفردًا وجمعًا ثلاث توسطتها كلمة « أَوْهَن » فصورةُ العنكبوت في بيت طغت على الصورة بما فيها المشبه .

٣- بيت العنكبوت الذي تَبْذُلُ فيها طاقتها نَسِيجٌ متهالِكٌ ، وتسميتُه بيتًا تهكُّمٌ وسخرية ؛ لأن ضَعْفَهُ بادٍ وَوَهَنَهُ ظاهرٌ ، فهو مكشوف لا يستر ولا يحمي ولا يؤوى .

---

(١) الكشاف ٣٥٨/٣ وراجع الطراز ٣٢٩/٣ وما بعدها والنكت للرماني ص ٨٥ .

٤- آثر لفظَ العنكبوت وبيتَها رمزًا إلى حال المشرِك المعقـدةِ المنفـرةِ ، وبيتُ العنكبوت مصـيدةٌ ، صَـيْدُ هـا الحَشَـرَاتُ والهَـوَامُّ الضـالةُ الشـاردةُ تسـجيلاً للهوان والذُّلِ والضَّعْفِ والسَّفَهِ على المشرك ، وهكذا في كلِّ آلهة أو أولياء من دون الله عامةً في كلِّ زمان .

قال الشهيد سيد قطب تعليقاً على التذييـل «لَو كَـانُـوا يَعْلَمُـونِ» ولكنـهـم لا يعلمون حتى هـذه البديهيـة المتطـورة (يعـني ضـآلة بيـت العنكبـوت)، فهـم يُضِيْفُونَ إلى الضَّعْفِ والوَهَنِ الجَهْلَ والغَفْلَةَ حتى ليعجزون عن إدراك البَـدَهِيِّ المنظور»[1].

والصورةُ الأخرى تُبْرِزُ معنى أنَّ الله وحدَه يجيب الدعاء ، وأنَّ الآلهةَ المُدَّعَاةَ لا تملكُ شيئاً ولا خيراً ولو كان قريبًا ، فيرسمه في صورة تُلِحُّ على الوجدان والحِسّ وتجتذب إليها الالتفاتَ فلا يتحوَّلُ عنها إلا بعناء[2]، قال سبحانه وتعالى: ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ والتمثيل محسوسٌ ، والوجهُ مركبٌ عقلي ، فأصلُ المعنى له دعوةُ الحقِّ ولآلهتهم دعوةُ الباطل لا تغني غناء ، إلا أنه جعل الآلهة كالعقلاء فجمعهم جمع العاقل ؛ وفقا لاعتقادهم ، أو لأن الأولياء من دون الله فيهم العاقلُ وغيرُه ، فغلب العاقلَ ثم نَفَى عنهم أَيَّةَ استجابةٍ ، ثم ضرب لهم المَثَلَ في عدم الغَنَاء والنفعِ مع الحاجة إليه باستجابة الماء لمَنْ يبسُط كفيه يطلب أن يبلغ فاه ، والماء جامدٌ لا يُحِسُّ بسطًا ولا عطشًا ولا يقدر بذاته أن يبلغ فاه ، وهيئةُ الباسطِ كَفَّيهِ في بَلَهٍ وهو عطشانٌ : هيئةٌ ساخِرةٌ فيها تحميقٌ وتسفيهٌ ، وتظل هيئةً ماثلةً لا تتحول والماءُ يجري في تدفق واعد. والتناقض بادٍ من

---

(١) التصوير الفني ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) التصوير الفني ص ٣٩ وانظر النكت ص ٨٣ والكشاف ٤٠٦/٣ .

عقليةٍ تافهة تريد خيراً فلا تقدر أن تفعل ، والخيرُ منها قريبٌ ، وهي صورةٌ من أعجب الصور التي ترسمها الألفاظ ، ولعلَّ للتمثيلَ بالماء بما فيه من حياةٍ وشفافية مُوْحٍ بالشعورِ المتولِّدِ أثناءَ العبادة والتأليه إشباعاً لغريزة التديُّنِ الفطريةِ ولكنه في غير مَحَلّ ، فبَسْطَ الكفين دائمٌ والعَطَشُ مستمرٌ والغباءُ مستحكم أبداً .

أما التمثيل الأخير فللكافرين من علماء يهود : قال الله سبحانه: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ والصورةُ حسيَّةٌ جديدة بوجه عقلي ، فقد شبه اليهود في أنهم كُلِّفُوا العملَ بما في التوراة فقرأوها ثم لم يعملوا ولم ينتفع بآياتها ، بالحمار يحمل كُتُباً ضخمةً كباراً هي كنوزُ المعرفةِ وثمارُ العُقولِ جاهلاً بها لا ينالُه إلا التعبُ والعناءُ ، ووجهُ الشبه الغَبَاءُ وعدم الانتفاع بأبلغ نافعٍ مع استصحابه ، والعَنَاءِ بسببه ، وقد جعله «الرُّمَّانيُّ» من تشبيه ما لا يُعْلَمَ بالبديهة إلى ما يُعْلَمُ[1] بالبديهة ، وجعله «عبد القاهر» و«الزمخشري» ومَنْ بعدَ ثُم من الشبه العقلي ، بَيْدَ أنَّ من شُرَّاحِ التلخيص مَنْ لَحَظَ أنَّ جهلَ الحمارِ بقيمةِ ما يحمل وَهْمِيٌّ اعتباريٌّ ؛ لأن هذه الصفاتِ حقيقيةٌ في الإنسان متوهَّمَةٌ في الحيوان ، ونجد التناسق العجيب ، فلفظ الحَمْل تكرر ثلاث مرات ، والحِمَارُ مَثَلٌ في الحَمْلِ وفي الغباء وعدمِ الإدراكِ والثباتِ على ما خُلِقَ عليه ؛ ولذا قُصِدَ الجنس ولم يجمعه ، والصورة ساخِرَةٌ متحركةٌ جميلةٌ وبخاصةٍ حين تَقْرِنُ الأَسْفَارَ في جلالها بالحمار الصَّبُور في غبائه ونهيقه الثائر ، فأيُّ تناقضٍ مثيرٍ في هؤلاء العلماء الجهلاءِ ، ورَحِمَ الله الرُّمَّانِيَّ فقد لَمَحَ من الصورة جديدًا مفيدًا فجعلها عامَّةً في كل عَالِمٍ اتَّكَلَ على الرِّوَايَةِ دون الدِّرايَةِ وحَفِظَ دُون أن يستفيدَ أو يُفِيدَ ، ذَمًّا ومَثَلاً قائماً إلى يوم الدين .

---

(١) راجع النكت ص ٨٥ . وأسرار البلاغة ص ٧٤ والكشاف ٤٢٤/٤ .

والآن إلى أعمال الكفار ومظاهر سلوكهم : قال الله تعالى:

١- ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾ (آل عمران:١١٧) .

٢- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ﴾ (البقرة:٢٦٤) .

٣- ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾

(إبراهيم:١٨) .

٤- ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (النور:٣٩، ٤٠) .

٥- ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ (الفرقان:٢٣) .

ومهما قَدَّمَ الكافرُ من خيرٍ فإنه فَقَدَ الإيمانَ والمعرفةَ بالله ، بل امتلأَ القلبُ جحودًا وكفرًا وظلامًا ؛ ولذا كان عَمَلُهُ باطلاً ، والقرآن يُقَدِّمُ معانِيَ الضياعِ والتَّلَفِ والذهاب وعدمِ الإفادةِ والنفعِ في تمثيلاتٍ أو صور تزيدُ على ترسيخ المعنى: التصويرَ الحَيَّ العجيبَ ، فما يقدمه المنافق مِنْ نَفَقَةٍ وضياعه وعدم قبوله بهيئةِ ريحٍ عاصفٍ فيها صِرٌّ (بَرْدٌ شديد) مجازاً عقليا كما تقول: بَرْدٌ بَارِدٌ ، وشِعْرٌ شَاعِرٌ ، أو فيها حَبَّاتُ بردٍ وقِطَعُ ثلجٍ ، أو خلوص الريح للبرد وتجريده

منها ، وفي كلٍّ فهي ريحُ عذابٍ عنيفةٍ أخذت حَرْثاً فأهلكت زَرْعَهُ وثمارَه فلا ينال صاحبُ الحرث ما كان يرجو بعد الجُهْدِ فيه والعناء في سبيله . وتلحظ الإيجاز في جانب المشبه ، وإفْرَادَ الريح ، وتصويرَ الصِّرِّ بجرسه لمدلوله وكأنها قذائف صغيرة لا تبقى ولا تذر ، وتعميمَ الإصابة للحرث شمولاً للثمار قطعًا ، وجَعْلَ الحرثِ لقومٍ ظالمين ليكون ثم انتقامٌ شاملٌ ، وإسنادَ الإصابة والإهلاك للريح تصويرا لرهبتها وفظاعتها .

وما ينفقه الكافر بالله واليوم الآخر ﴿ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ﴾ وهو تشبيه تمثيلي تَكُونَ على ثلاث مراحل زمنية في ثلاث جمل : صفوانٌ عليه تراب فهو تراب على غيرِ جنسه غيرِ ثابتٍ ولا دائم «فَأَصَابَهُ وَابِلٌ» ـ انهمرت عليه أمطارٌ غزيرة ـ «فَتَرَكَهُ صَلْداً» ـ ظن به الخصوبة كما هي طبيعة الأرض حين تجود السماءُ إذا به يتركه صَلْداً مغسولاً أملسَ . وانظر التعاقبَ السريعَ وتلاحُقَ المراحلِ وتَوَالِيَ المناظرِ الطبيعيةِ الغريبة والتعبير (تَرَكَهُ) فيه إهمال وإعراض ، لقد ذهب الظاهرُ الخادِعُ وبقِيَ الواقعُ البرَّاقُ ، وفيه الضياعُ وعدمُ الانتفاع ، وكذلك إنفاق الكافر ، ثم انظُرْ هذا التمثيل :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ والتصوير خاصٌّ بالأعمال وعدكمِ جَدْوَاها ، لكنه قَدَّمَ (الذين كفروا) تأثيماً وتجريماً وتشهيراً وسبباً في إفساد الأعمال ، ويبلغُ التقبيح مداه حين يكون الكُفْرُ (بِرَبِّهِمْ)، فهنا الجحودُ والظلمُ الكبيرُ ، وجاءت هيئةُ المشبه به متناوعة متجاذبة مؤلفة من أضداد : رمادٌ ، وغبارٌ من ناحية ، وريحٌ اشتد به في يومٍ عواصِفَ أنه عاصف ، والعَصْفُ للريح لكنه لقوته تجاوز الحال إلى الزمان فجعله عاصفاً ، وخيالُك لاهثٌ مبهورٌ وتوشك أن تغمض عينيك من رمادٍ ذهب بدداً وحركاتٍ عنيفة لريحٍ

هَوْجَاءَ لها صوتٌ وصفيرٌ ويومٌ عاصفٌ له غُبْرَةٌ ودُكْنَةٌ ، إنها صورةٌ حسيةٌ نرى قريبا منها في العواصف في الخريف ، لها وقعها النفسي الخالد . فهل يكون لعمل الكافر خيرٌ أو ثوابٌ ؟

ثم اقرأ الآيتين تعرضان صورتيه أو تمثيليتين بارعين في سورة النور :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ .

يقول سيد قطب معلقاً : « هنا صورةٌ فنيةٌ ساحرةٌ فيها روح القصة ، وفيها تخييل قويٌ وهي بَعْدُ في حاجةٍ إلى ريشةٍ مبدعةٍ لو أريد تصويرها بالألوان ، وإلى عدسة يقظة لو أريد تصويرها بالحركات بل أين هي الريشة أو أين هي العدسة التي تستطيع أن تبرز هذه الظلمات ﴿ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ ﴾ الآية ، أو تصور الظمآن يسير وراء السراب ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ ووجد مفاجأة عجيبة ـ لم تكد تخطر له على بال ـ وجد الله عنده ـ وفي سرعةٍ خاطفةٍ تناوله (تَوَفَّاهُ حِسَابَهُ) ». وهذا نموذج من تحليلات سيد قطب رحمه الله ولسنا نحبذ التوسع في المصطلحات الفنية المنقولة عن الرسم والتصوير والإخراج السينمائي ونقلها إلى ساحة التحليل القرآني وإحلالها محلَّ المصطلحات الإسلامية والبلاغية والتي تغني في بيان التمثيلات القرآنية ، والمثير هنا كما نَبَّه بعضُ علماء المحدثين أنَّ التمثيلَ في سورة النور مناسبٌ للسياق العام للسورة وحتى لاسمها ، فالضَّوْءُ والنُّورُ أو عدم النور وهو الظلمة ثم الرويةُ من أهم عناصر التمثيل وهذا تلاؤم معجز .

فإذا ذكرنا الغرض الديني الذي رسمت له هذه الصورة فلنذكر معه المتاع الفني الطريف في هذا التصوير الحي الجميل»[1].

ونتعمق التمثيل لنرى أن هذا نوع من الكفر مما يعطل فيه صفة الله كالتوحيد أو القدرة ولا يعطي الألوهية حقها وإن كان يؤمن بالآخرةِ في جملة معتقداته ، ولذا فعملُهم في الدنيا وأثرُه في الآخرة يصوِّرُه القرآنُ في كلماتٍ نافذةٍ تربط الدنيا بالآخرة، ينتقل بينهما الخيال فهو سراب يراه الكافر بالساهرة، وقد غلبه عطش يوم القيامة فيحسبه ماءً فيلْهَثُ عَدْوًا حتى إذا جاءه وجد خلاف ما قَدَّرَ ، وجد زبانية اللهِ فيَعْتِلُونَهُ إلى سُوءِ العذاب ، فالصورةُ إذن واقعةٌ بالآخرة كما يرى الزمخشري[2] ومن جاء بعده، بينما يرى كثيرٌ ومنهم الإمام أبو الأعلى المودودى أن هيئة المشبه به هيئةُ السرابِ بصحراءَ واسعةٍ يحسبه الظمآن ماءً فيجهد نفسه في الذهاب إليه[3] فلا يجد شيئاً ، فالصورة معلومة صحراوية عاينها الكثير ، ويبدو أن قوله ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ ﴾ أوحى للزمخشري برأيه ، وإن هي إلا براعةُ القرآن وطريقتُه الخاصةُ في الربط بين الآخرة والدنيا بكلمة واحدةٍ ؛ ذلك أنَّ الصورةَ وإنْ كانت دُنيويةً نراها ونتعمقها إلا أن مغزاها وهو اليأسُ بعد الأمل لا يحقق إلا في الآخرة ؛ ومن هنا جاءت نهاية الصورة بتذييل راعد ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾ ليشعر بالعقاب والانتقام المهول ، ولقد أعان النظمُ على إحياء الصورة ، فهنا سَرَابٌ بالتنكير وكذا قِيْعَةٌ والفعل« يَحْسَبُه» يصور أمل الظمآن الباسم في العثور على الماء وتعلُّق قلبه به «وماء» بالتنكير يوحي بفيض من الشعور المتجاوب معه و ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ ﴾ جاءت على طريقة القرآن كقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ﴾ ، ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ

---

(١) التصوير الفني ص ١٩٩.

(٢) انظر الكشاف ١٩٢/٣ .

(٣) انظر تفسير سورة النور .

﴿أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ و«حَتَّى» هنا تطوي مراحلَ زمنية وشعورية يعيشها صاحبُها في انفعال وحياة ، «وإذا» الشرطيةُ بمدخولها تصوِّرُ تعاقبَ اليأس الخانق بعد الأمل الباسم ، ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ فيها المفاجأة التي تضعضع الأركان ، إنه الله ، وكفى ، ليذوب الكافرُ خجلاً وحسرةً ويأساً ، أَلَسْتَ معي في أن تقدير العلماء زبانية الله أو عقابه وإن فرضه التصويرُ الإسلامي ، يبقى أنَّ سرَّ الحذف هو المفاجأة المذهلة للكافر بالله الجليل ليوفيه حسابه وأثر ذلك في زلزلة كيان الكافر بالمواجهة المذهلة للشرك وأهله .

أما التمثيلِ الآخرُ فيقدم الأعمالَ في صورةٍ جديدةٍ والوجه وهو تراكُبُ الظلامِ وتراكمُ السَّوادِ مُخَيَّلٌ في المشبه وهو عمل الكافر محقق في المشبه به فهو عند كثيرٍ من العلماء تخييليٌّ ، ولاحِظ البُعدَ والغرابةَ وانتزاعَ الصورةِ من عالَمٍ غريبٍ قد يراه من ركِبَ البحار ، إنَّ هنا تفصيلاً ونفاذًا في أعماق الظلمات بعدد طبقاتها في صَبْرٍ ودِقَّةٍ ، فمنها «ظُلُمَاتٌ» بالجمع المفيد للتعدد والكثرة ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ تنكير البحر ووصفه بلُجِّي يوحي بالضخامة والفخامة والهول ، ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾ خيل انفصالَ الموج من البحر وجَعَلَهُ يَغْشَاهُ تصويراً لعظمة وصوله وارتفاعه ، ﴿مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ تصويراً لتوالي الأمواج حين ثورة البحر وهياجه حتى لتركبه الموجةُ الموج ، والظَّرْفُ حَدَّدَ طبقاتِ الأمواج وارتفاعَها السامق ، ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ فهو ارتفاع للأمواج وصلت السحاب ، أو أن الطبيعة كُلَّها ثائرةٌ معتمةٌ ، فلقد تكاثرت السُّحُبُ المظلمة وغَطَّتِ البحرَ المائج ، وانظر تناسقَ البحرِ والموجِ والسحابِ ، وجْعَلَ ذلك مكتنفاً بالظلمات بدءاً وانتهاءً ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ فهي طبقات كالأمواج والسحاب ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ ما مرجع الضمير: أهو المسافر اليائس ؟ أهو الكافر الضائع أم هو ضمير الواقع فيه كما يقول الزمخشري[1]؟ أم جعل

---

(١) الكشاف ١٩٣/٣ .

الضمير مطلقا عاما ليشرك السامع نفسه في الصورة فتأخذه من نفسه وتسيطر عليه بقهر جمالها وجلالها وعظمتها ؟ ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ عَقَّبَ الظلماتِ بالنورِ المَجَازِيِّ كنايةً عن أن التوفيقَ والمَدَدَ من الله يمنح من عنده التطلع إلى البداية. وعلماء الإعجاز العلمي في القرآن وضحوا أن الآية تصويرٌ حقيقيٌّ دقيقٌ لما يحدث كثيراً في بعض أوقات العام في المحيط الأطلنطي ، وقد التُقِطَتْ صورةٌ دقيقةٌ تبيِّنُ ذلك وأن الآية نقلٌ دقيقٌ لها ، وانظر كُتُبَ الإعجاز العلمي ترى العجب العاجب ، وعلى هذا يكون التشبيه مركباً حِسِّيًا حقيقيًا لا تخييل فيه وإن كان أعجبَ من التخييل وأصرفَ ؛ لأنه كلام من أبدع الكون عز وجل .

وتمثيل عمل الكافر منتزع في التشبيه القرآني ، من ظواهرَ طبيعيةٍ لها وقعُها ، وقُوَىً كونيةٍ لا يُدْرِكُ المرءُ إلا أثَرَها في بيئته كالرِّيْحِ العاصفِ مع الرَّمَادِ ، والريحِ فيها صِرٌ مع الحَرْثِ ، والسَّرَابِ مع العطش ، والتُّرَابِ على الصنوان مع الماء ، إنها أجزاء متنافرة خِلقةً ؛ إيماءً إلى أن الخير أبداً لا يَصْحَبُ الشرَّ بل الكفرُ ظلمات لا نورَ لها ، ومع هذا البعد الشاسع نرى الوَحْدَةَ والأُلْفَةَ في الصورة رمزاً لِسُنَنِ اللهِ الكُبْرَى كالحياة التي هي صراع بين الخير والشر ، أما الآية الأخيرة(*) ففيها تخييلٌ بيانيٌّ أو تركيبٌ حسيٌّ جعل ما حمل كالهباء المتناثر في الضياع والفقد .

أما النفاقُ والتلوُّن ومرضُ القلب وشيوعهُ في كل مجتمع فإنه مع الكفار باطناً وضميراً وبقوته في الظاهر المتلوّن والوجه ذي الأقنعة ، واقرأ قوله عز وجل :

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ

(*) قوله تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ .

أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ .

فهذا المثل في المنافقين باتفاقٍ ، وقد اقتضبَ صفاتٍ في المشبه مكتفياً بما يقابله في المشبه به على عادة القرآن في إيجازه البليغ ؛ ذلك أنه شبه المنافقين حين تنزل القرآن أمراً بالجهاد ، وكانت حروب وفتن مُحِّصَ فيها المؤمنون وتَتَرَدَّدَ فيها المنافقون يُقْدِمُونَ في الخير والنصر قائلين ﴿ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ ويُحْجِمُونَ في البلاء قائلين ﴿ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ ﴾ فهم متلونون لا يثبتون ، والمشبه به هيئةُ صَيِّبٍ هاطلٍ اكتَنَفَهُ الظلماتُ والرعدُ والبرقُ سار فيها قومٌ جهلوا همهم لصواعقه فخلفوا ، يكادون من الرعب يُدْخِلُون أصابعَهم كُلَّها في آذانهم خوفَ الموتِ ، والبرقُ يشتَدُّ يكادُ يَخْطَفُ أبصارَهم وهم متعلِّقونَ به ، إذا أضاء مَشَوا ، وإذا أمسك قاموا ثابتين ، وأنت تلمح كيف توالت وسائلُ التعبير في الكشف عن مواقف المنافقين ، وتعددت الرموزُ في التمثيل لموقفهم تجاه الإسلام ؟ وكيف قَدَّمَ الظلمات وأَخَّرَ البرق ، وكيف صَوَّرَ المجازُ المرسلُ والكنايةُ رُعْبَهُم من الصواعق ، والتمثيل في إحاطة الله بهم ، والاستعارة في ﴿ يَخْطَفُ ﴾ بمعنى يُذْهِبُ ، مع مراعاة النظير في الصَّبِّ والظُّلُمَاتِ والرَّعْدِ والبَرْقِ والصَّوَاعِقِ ، والطباق بين « أَضَاءَ وَأَظْلَمَ » ، والتصويرُ منتزَعٌ من الأمور المتغيرةِ المتقلِّبةِ ؛ تصويراً لطبائعهم ، وكيف يُلَخِّصُ هذا المشهدُ المتتابعُ الحركاتِ والسماتِ حَيَاتَهُمْ كلَّهَا بدءًا ونهايةً ؛ في حُبِّهِمُ الخيرَ دون جُهْدٍ ، ونِفَارِهِمْ من التكاليف كالجهاد دون الضرر دون فكرة أو مبدأ[1]. وقال الله تعالى :

﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ .

---

(١) راجع النبأ العظيم ص ١٦٣ وما بعدها .

﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ .

والقرآن يصورهم حينَ ذِكرِ الحربِ والقتال جُبَنَاءَ يموتون جبْنًا وهَلَعاً، وكلُّ آيةٍ تمثِّل نموذجاً إنسانيًا للخائف الجبان، والعجيبُ من هذا التلاؤمِ الغريب، فالمشبهُ في الأول محذوفٌ وهو مفعولٌ مطلق يعني: نَظَراً كنَظَرِ المَغْشِيِّ عليه، فحذفه وحذف الأداة وركّزَ على مادَّةِ النظر ولم يبق إلا المشبه به بارزًا قويًا نظرات مَنْ غُشي عليه ودخل إلى الموت بهذا التقييد الزمني في الشخوص والهَلَعِ وَسَعَةِ العيون، وقد حذف المشبه تلاؤماً، كَأَنَّ الخَوَرَ والجُبْنَ ألحق أصحابَه بالأمواتِ ومحاهم محواً من عالم الأحياء والأساليب.

والتشبيه الثاني من «سورة الأحزاب» من سياق يبين ما حدث في غزوة الأحزاب حين تألَّبَ الأعداءُ وزحفوا إلى المدينة المنورة، فالعدوُّ محيطٌ بالمدينة وقد زاغت الأبصارُ وبلغت القلوبُ الحَنَاجِرَ، فالقرآن لتخاذُل المنافقين في هذا الوقت العصيب يفضحهم ويُفَصِّلُ تفصيلاً ما حدث لهم، فالمقامُ مختلف؛ ولذا ذَكَرَ الطرفين، ودلت الجملة «تَدُوْرُ أَعْيُنُهُمْ» على وجه الشبه دلالةَ الرُّعب والجبن، وهو تمثيلٌ لهيئتهم وهلعهم واصفرار وجوههم وارتعاش كيانهم وسعة عيونهم في دورانٍ كهيئةِ المغشي عليه من الموت وركز على العيون مصوراً بالفعل (تَدُورُ) حركَةَ الدوران الدائمة، وإذا كانت العيونُ هكذا وهي مرآة القلوب فكيف بالقلوب، ونلحظ أنَّ الشبه بليغ في الأول للتقارب الشديد بين الطرفين حقيقةً وتخييلا؛ ذلك أن الخوف كما ذكر الأطباء يشل الأعصاب ويجعل الفريسة في حال غياب كامل عن الواقع، كما ذكرت الكافُ في الثاني وهي غالباً ما توحي بالتقارب بين الطرفين أو بقوةِ تحقيق الوصف بين الطرفين، والتصوير السالف مع تقديمه نموذجاً خالدا للجبان المستأسد في السلم الخوَّار في الشدة، يرسم صورةً ساخرةً باسمةً متحركةً أيضاً ولعلك تذكر قول المتنبي ساخراً من الجبان في مبالغةٍ متخيلةٍ وتشويهٍ وتهكُّم:

وَإِذَا مَا خَلا الجَبَانُ بِأَرْضٍ طَلَبَ الطَّعْنَ وَحْدَهُ وَالنِّزَالا

وإن كان يفتقد الحرارة والدقة والتصوير البياني ، ولسنا في مقام الموازنة ؛ فأين كلامُ البشر من كلام خالق البشر ؟ وإنما ساقنا إليه ذكر السخرية من الجبان .

وانظر دقة القرآن حين ساق آية الأنفال تصف كثيراً من المؤمنين وقد أفلت منهم العِيْرُ وجادلوا النبيَّ الكريم ﷺ ليَرْجِعُوا عن القتال فوبَّخَهُم الله وأنَّبَهُمْ بمثل هذا التمثيلِ الساحرِ العَذْبِ :

﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾

فقد شبه حالهم في الفزع وهم لا يعلمون أنه الخير بحال من يقاد رغماً عنه إلى القتل ، ويُسَاقُ على الصَّغَارِ إلى الموت ، وهي مشاهد لأسبابه ناظر إليه[1]. وأنت تعلم من أسباب غزوة بدر الكبرى أنَّ أبا سفيانَ هَرَب بعِيْرِ قريشٍ من طريق المسلمين ، فأمر رسولُ الله ﷺ من حضر من المسلمين أن يَفْزَعُوا إليه ، فجادله بعضُهم بعد عِلْمِه بهروب أبي سفيان ولم يعلموا أن هذا من قَدَرِ الله وأنهم مقبلون على نصرٍ كبير لدين الله يُمَكَّنُ له في الأرض إلى يوم الدين ، فنزل القرآنُ عاتباً مقوِّمًا سلوكهم لأنهم قادة البشر . والدقةُ هنا أن الإيمان مكينٌ من قلوبهم وأن ما حدث عَرَضٌ ناشئ وبُخُوا عليه ثم اندفعوا للقتال والاستشهاد ؛ ولذا أتى بكَأَنَّ المفيدةِ تباعد الطرفين عكس المنافقين ، ثم انظر كيف تركب الصورة فتؤثر في النفس ، لقد أدخل المؤمنين في الصورة فجعلهم هم على التخييل يقبض عليهم فيُسَاقون رغمًا عنهم إلى حبال الموت المنظورة ، وهي صورة تثير النخوة وتبعث السخرية في بيئة تتغنى بالشجاعة والبطولة .

وقال تعالى في سورة المنافقين : ﴿ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡ ﴾ وقد قدَّم التشبيهُ جزءًا من الصورة الكلية. فهم أرباب بيان لكنهم لا خيرَ فيهم وجبناء ، وقد صور أجسامهم الفارعة

---

(١) انظر الكشاف ٢/١٥٦ .

بقلوبٍ خالية من الحق والخير بالأخشاب المُسَنَّدَةِ ، ولما كان ظاهرُهم وذَلاقَةُ لسانهم توحي عكسَ ذلك قَوِّي التشبيه بكَأَنَّ مع تباعد الطرفين حياةً وجمادًا ، فهم أخشاب لا رُوْحَ فيها ؛ لأنهم فقدوا الخير ففقدوا الحياة والنفع ؛ ذلك أن الخشب يُصْنَعُ أو يوضع في سقف أو جدار ، أما أن يسند بهذا التضعيف الدال على الاهتمام بالتسنيد للادخار .

والعجيب مما يحضر إلى الخيال من تماثل شكلي بين من لا خير فيه وبين ألواح الأخشاب المسندة ، بل صار ذلك مثلاً قرآنياً يَتَمَثَّلُ به الناس ، وأومأ الزمخشري إلى جواز أن يشبهوا بالأصنام في حسن الصورة وقلة الجدوى ، وهو بعيد لفقدان السخرية ولأن الأصنام كانت حجارة[1] وخشب . ويدخل في هذا الباب قسوةُ قلوب بني إسرائيل ، قال اللهُ تعالى:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ فقد شبه قلوبهم (وهي مفردة) بالحجارة في قسوتها ، والقسوةُ في القلب مجازٌ قريبٌ عن بُعْدِهِ عن الحق ، فالوجه تخييلي في المشبه ، ثم تَرَقَّى في التشبيه ﴿ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ ولم يقل أَقْصَى ليفيد المبالغة والتقريع فهي أقسى من الحجارة بمراحل ، ثم أتى ببراهين الحُكْمِ ، فالحجارة مع قسوتها تتفجر بالأنهار وتشَّقَّقُ بالعيون بل إن منها ما يدركه شعور الخشية والوَجَلِ من الله مما لا يتحقق كثيرًا في البشر ، ومع تصعيدِ المعنى وغرابةِ التشبيه تقدم لك الآية لوحةً فريدةً تتسعُ للأنهار في الوديان والعيون في الجبال وللآكام وهي تهبط من خشية الله وتندَكُّ مما لم يره إنسانٌ سِوَى موسى الكليمِ حين تَجَلَّى ربُّهُ للجَبَلِ فجعله دكًّا ، وهو أمرٌ لا تحيط به الظنونُ والأوهامُ بله العقول .

* * *

(١) انظر الكشاف ٤/٤٣٢ .

٢- الإيمان وسلوكه

الغرض الثاني الإيمان وسلوكه :

ولن نجد كثيراً من التشبيه هنا ؛ ذلك أن الأسلوبَ الحقيقيَّ والمجازيَّ استأثرا بالنصيب الأوفى ، ومع ذلك نرى التصوير الخلاقَ المتحركَ فيما قَدَّمَ التشبيه ، قال اللهُ تعالى في صِفَةِ النبي ﷺ وأصحابه رَضِيَ الله عنهم في الإنجيل : ﴿ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ .

- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾.

- ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

- ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ .

- ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ .

وبالتشبيه في الآية الأولى يستلب من عالم الزَّرع صورةً خاصّةً تبدأ بالنمو وتنتهي بالثبات ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ ﴾ متبعاً مراحل الزرع ، من زرعٍ ضعيفٍ واهنٍ ، ثم يُخْرِجُ شطأه وفروعَه الصغيرةَ دلالةَ خِصْبٍ ونماءٍ ثم تقوى هذه الفروعُ الصغيرةُ لتُقَوِّيَ الساق (فَآزَرَهُ) ثم يصير غليظًا يقاوم عَوَادِيَ الطبيعة ، ثم الثبات على القوة بعد هذه المراحل السريعة المتلاحقة البهجة ، واستلاب هذه الصورة المختلفة الألوان المجسدة للقوة والنماء والجمال

مع التناسق في رسم الصورة أو اللوحة ؛ ولذا تجد الفعل «يُعْجِبُ» مضارعًا مصوِّرًا حالاً قائمةً ثابتةً هي الإعجاب بما آل إليه الزرع ، إنه مَثَلٌ ضربه الله لبَدْءِ الإسلام وترقيه في الزيادة(١) حين بدأ بأول المسلمين سيِّدنا محمد عليه الصلاةُ والسلام ، ثم أصبح للإسلام أُمَّةٌ هي خيرُ أُمَّةٍ ، ثم نموها واستقرار وضعها أبدًا . وإذا كانت الصورةُ المأخوذةُ بقَدَرٍ من عالِمَ الزرع لأنه واقعٌ طبيعى يراه الناس وينفعلون بألوانه وبراعمه وزهوره وفتائه وإلى هذا الجانب تصدت الآية تمثيلا للمعقول وتجليةً للمعنوي وتدليلاً على الفكرة التي كان الزرع فيها مثالاً ، فقد قصد جانباً آخر في إنفاقِ المؤمن ﴿ **مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ** ﴾ الآية.

وعمليةُ الإنفاق حيةٌ والمُضَاعَفَةُ والجزاءُ غيبة خرجت ماثلةً من واقع زراعى في صورة طريفة هى المثل في البركـة ، والمضـاعفة في القـرآن مرتبطـةٌ بدلالة اللفظة في السياق ، فالذُّرَةُ تفيد القِلَّةَ مثلاً ، بينما الحَبَّةُ تفيد الكثرةَ والنماءَ ، فهي مَثَلٌ في الإكثارِ ، ولو على سبيلِ الفَرْضِ(٢)، وانظر كيـف تكوَّنـتِ الصـورةُ فقـد ضوى الكـلامَ في جانـب المشـبه ، قَـدَّرَهُ الزمخشـري «بنَفَقَتِهِمْ» أو في جانـب المشبه به أي كمثل زارعٍ أو بازرٍ حبَّةٍ ، وتلحظ أن ثَمَّ طيًّـا آخـر وهـو مضـاعفةُ مـا ينفقون ، وهو ما جَسَّدَته الصورةُ ، وانظر الإفراد والتنكير في «حَبَّـةٍ» بـدأت ضعيفةً ثم بدأت تقوى ، فأسند الإنبات إليها تخييلاً ومجازاً عقليًا ، ثم الاقتصار على المراد من الخير وهي السنابل ، ولها في الـذاكرة والخيـال عِيـدَانُهَا الذهبيـةُ المتطاولة ، وهي سبع غريبة فيها بركة ، ففي «كُلِّ سُنْبُلَةٍ» بهذا العمـوم الصـارم «مِائةُ حَبَّةٍ» لا تنقصُ ، والعقل يحسب ما تعطى الحبة (سُبْعُمِائةُ حبَّة) يتمثلـها الخيال في لفتةٍ واحدةٍ ، والغريـبُ في التناسـق أنَّ هـذه الأعـدادَ تـؤدِّي الغـرضَ

---

(١) انظر الكشاف ٢٧٦/٤ والتصوير الفني ص ١١٣ .

(٢) انظر الكشاف : ٢٣٥/١ .

بمضمونه الفنّي دعوةً إلى الإنفاق ، ثم هي من الألفاظ العددية التي تُرِدُ كثيرًا في البيان القرآني ، كسَبْعِ سَمَوَاتٍ وسبع ليالٍ ومائة وألف ومائة ألف وهكذا تناسقًا عاملاً جميلاً .

والمثل التالي فيمن ينفقون أموالهم ابتغاءَ مرضاتِ الله وتثبيتًا من أنفسهم ، وهذا قيدٌ جَعَلَ المنفقين أَرقى نوعًا من سابقيهم ؛ ولذا كان المَثَلُ عاليًا خاصًّا أنه ﴿ جَنَّةِۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ وهنا عالم الربيع المقيم ، إنها جنةٌ بربوة أصابها وابل ؛ خِصْبًا في التربة وتهيئةً للنماء واختياراً للمكان والزمان ، بهذه الكلمات الموحية المختارة التي تترك على أطراف المعاني إيحاءات جمة ، ثم هذا الإيجاز الزماني الغريب ؛ ذلك أنَّ الصورةَ تُبْرِزُ الأُكُلَ مارةً بالمراحل التي ينضج فيها الثمار ، والتعبير بالأُكُلُ مرادًا الثمار المأكول ، والتعبيرُ بالضِّعْفِ قصدًا إلى الغرض وهو الإكثارُ والإضعافُ ، بل إن لم يصبها وابل فطل وقد ألمح الزمخشري إلى[1] الرمز عن النفقة الكثيرة بالوابل والقليلة بالطَّلِّ ، وكُلٌّ يُضْعِفُ الثمرة ، وقد أجد أنَّ الصورةَ تقصد إلى بلوغ الخصب غايته ، وأن قليلاً من ماء أو كثيراً يؤدي إلى الإكثار وزيادةِ الإثمار ، وتلحظ أَنَّ من براعة التصوير أن ينتزع من عالم الزرع صورًا على وجوه مختلفة في تجاور يبرز هذا التصوير ويؤكد مضمونه في المتقين لله أولاً والكافرين ثانياً والمؤمنين المنفقين ثالثًا ، ثم في هيئةِ استعارةٍ تمثيليةٍ لمن أصابه الكبر وله ذريةٌ ضعفاءُ وهو العاصي الجاحدُ ، كل ذلك لونٌ آخرُ من التصوير بالتقابل .

أما من يحب الله من المجاهدين فهم المقاتلون صفًّا كأنهم بنيان مرصوص ، فالطرفان محسوسان ، والوجه أيضاً ، وأفادت كَأَنَّ تأكيداً وتأليفًا لمتباعدين ؛ ذلك أنَّ المشبه في حياة كَرٍّ وَفَرٍّ وحركةٍ دائبةٍ ، والمشبه به مثل في النبات في

---

(١) الكشاف ٢٣٩/١ .

الاستقامة والالتصاق واختيار كلمة «بُنْيَان» . دقة متناهية تؤدي الغرض من استواءٍ والتئامٍ ومتانةٍ ومقاومةٍ ، كما أنه يوحي بوحدةِ الكلمةِ واجتماعِ القلوبِ ؛ ومن هنا أجاز الكشاف أن يكون تشبيه استواء نياتهم في الإخلاص كالبُنْيَان[1]، والواقع أن التشبيه عامٌ يشمل ما يوحى بالاستواء والوَحْدَةِ حسيًا كان أم معنويًا، أما المثل ﴿ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ : فهو تشبيهٌ ضمني ، خرج فيه المعلومُ بالنظر والاستدلال أو الوجداني العقلي وهو الإيمان تلبس به المؤمنُ في صورةِ المشاهَدِ المحسوس ، صورةِ من أراد أن يتدلى من شاهق فاحتاطِ لنفسه بأن استمسك بأوثقِ عُرْوَةٍ من حَبْلٍ متينٍ مأمونِ انقطاعُهُ ، والعُرْوَةُ الوُثْقَى والحَبْلُ أصبحَ مثلاً في القرآن للاعتماد على جانب الله ، كقوله ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ ﴾ ، ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ ، ونلحظ أنَّ العروة اشتملت على استعارةٍ أيضًا وطباقٍ ومراعاة نظيرٍ ، براعةً وتأكيداً وحُسْنَ تصويرٍ .

موازنات :

وجَمْعُ المتضادين أو المتنافيين عقلاً أو عادةً في قَرَن واحدٍ ؛ بياناً وكشفاً لما فيها من جوانب الخيرِ أو الشرِ ، غَرَضٌ كبيرٌ من أغراض القرآنِ ، وللتشبيه فيه دَوْرٌ طيِّبٌ ، وهنا ظاهرةٌ بيِّنَةٌ في الاستعمال القرآني ، وهي : أنْ يعقد التشبيه بين مختلفين طبعًا وفطرةً أو سلوكًا أو عقيدةً مسبوقًا بما ينقضه بالاستفهام الإنكاري للاستواء أو ينفي الاستواءَ صراحةً أو بالنهي عن التشبه بنوع من الناس كالكافرين في قول أو عقيدةٍ أو عمل : وتدبر هذه المفارقات قال تعالى :

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ .

---

(١) الكشاف ٤١٨/٤ .

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ .

وقد قدم الكافرين تشهيراً وتقبيحًا وبرهانًا على خطأ التسوية ثم إفاضة وتحليلاً في شأن المؤمنين :

- ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ .
- ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ .
- ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ .

ونلاحظ هنا أنَّ جانب المشبه اشتمل على ثلاث استعارات والمشبه به على استعارتين ؛ إشراقاً في الصورة وطباقًا متعددًا .

وقد يختلف أسلوب الأداء فنجد النفي الصُّرَاحَ : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ﴾ .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (19) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (20) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (21) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ ، وفي الآية الأولى جاء التشبيه ضمنيًا على طريقة اللَّفِ والنَّشْرِ ، وقد تقدم المشبه به : الأعمى والبصير ، على المشبه (الذين آمنوا) ـ المسيء ـ مع الطباق البارع ، والآية التالية حشدت استعارات وطَوَّفَتْ بالطبيعة والحياة .

وانظر ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ فقد تناصر التشبيهُ والطباقُ واللَّفُّ والنَّشْرُ والإيجازُ ومراعاةُ النظير على إخراج صورةٍ مِجْلُوَّةٍ ، وقد يمكن أن تقول : إن الفريقين مُثَّنَى

(فريق) وقد شبه الفريق الأول مرتين مرة بالأعمى في عدم الاهتداء ، ومرةً بالأصم في عدم الانقياد ذمًّا وتقبيحا ، والواو من عَطْفِ الموصوف على الموصوف ، وشبه فريق المؤمنين بالبَصير في الاهتداء ، وبالسميع في الاهتداء والانقياد والإدراك .

وقد يجوز أن يُشَبَّه الفريقُ مرةً بمَنْ جَمَعَ بين العمى والصمم ، والفريق الآخر بمن جمع بين البصر والسمع ، وانظر فهي خمسة ألفاظٍ شَغَلتِ الفكرَ والوجدانَ وضمت مجموعات بشرية تملأ الحياة ، ثم نفى استواءهم أخيرًا ، ونلحظ أنه يذكر الاستواء مع النفي ، أما في الاستفهام فليس ذِكْرُه مطردًا اكتفاء بما يثيره الاستفهام ، وقد أصبح حقيقةً قرآنيةً أنَّ الكفر ظلامٌ وعَمَى وفقدُ حواسٍ وظلماتٌ ، فهو عمى مُنْكَرٌ يُخَوَّفُ به ؛ ولذا كان تكرار النهي عن التشبه بهم في الأعمال والصفات أمرًا خطيرًا : قال تعالى :

- ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ .
- ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ ﴾ .
- ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ .
- ﴿ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ .

وقد يكون التنظير بالماضي وأحداثِه البالغةِ شرًّا أو خيراً ، دنيا أو أخرى أو حاضراً ماثلاً جمعا بين الأزمان وقرنًا بين الأنواع وعظمةً وعِبرةً يؤديها التشبيه والطباق : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ .

- ﴿ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ ، ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ ، ﴿ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ﴾ ، ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴾ ، ﴿ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ .

ونلحظ أنَّ المشبه به بلغ النهاية في بابه عذابًا أو قبحًا ، وفتنةً أو شرًا ، فهو تنظيرٌ مؤثِّرٌ يبين حالَ المشبه ودرَجَتَه تخويفًا ، ومثلُ ذلك كثيرٌ وفي قوله سبحانه :

- ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ ، ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ ، ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ ، ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ ﴾ .

ومِثْلُه كثيرٌ مما يكون فيه الترغيب أو التقرير أو التثبيت بهذا التمثيل والتنظير بالأشهر أو الأقوى ، وفي قوله سبحانه على لسان قابيل :

- ﴿ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ ﴾ ، وقول اليهود لموسى عليه السلام : ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ وعن رسول الله ﷺ وتوبيخ اليهود : ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ نجد الممثل به مشهدًا مرئيًا أو حقيقةً واضحةً أبلغ من كل خيال .

واللافت هنا أن الأداة دائمًا الكاف ؛ ذلك أنَّ المسافة تحقيقًا أو تخييلاً ليست بعيدةً بين الطرفين ، ففي الإثبات ذواتٌ متفقة وصفات مختلفة أو تقارب يُضَيِّقُ الخلافَ ولا ينفيه ، وفي النفي نَفْيٌ أو نهيٌ عن التمثل والاقتراب من صفات الضالين .

وقد وجدنا « كَأَنَّ » استُعْمِلَت فيما قَرُبَ طرفاه ، لكِنْ لغرض اقتضاه المقام ، قال تعالى : ﴿ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ﴾ . جاء السؤال على التشبيه أمثل هذا عرشك ؟ وجاء الجواب طباقًا له مع الذكاء والعقل وحسن التدبير ، وإنها لملكةٌ لم تقل هو هو ، ولا ليس هو ليكون في مجال الظن ودائرة الشك قريباً من التصويب وبعيدًا عن الخطأ . ويرى بعضُ المتأخرين أن كأنَّ هنا للظن والشك وليست للتشبيه ، وليس هذا الرأيُ عن فَحْوَى النصِّ ببعيدٍ . والله أعلم .

الدنيا وحقيقتها :

قال تعالى :

- ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ .
- ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾.
- ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ .
- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ .

وحقيقة الصورة واحدةٌ إلا أن القرآن تناولها بأسلوب جديد طريف يغير الصورة أو يوجز فيها أو يضيفُ شيئًا : حَلْقَةً أو حدثًا ، أو يقدِّم حقيقةَ التَّغَيُّرِ والزَّوالِ في دنيا الزرع دون إيماء إلى تمثيل ، وذلك آية على المُغَيِّرِ الذي لا يتغير ، سبحانه ، ثم اعتمادًا على ما ذكره في نصوص أخرى مما يجعل معالجة أمْرٍ قرآنيٍ قبلَ استيفاءِ نظائرِه أمرٌ محفوفٌ بالأخطار والتورُّطِ في الأخطاء .

والتشبيه للدنيا في حال انقضائِها وسرعةِ زَوَالها وانقراضِ نعيمها بحَالِ نباتِ الأرض تَقَلَّبَتْ به الأحوالُ جَفَافًا بَعْدَ خُضْرَةٍ ، وزوالاً بَعْدَ بهجةٍ ، وجاءت « إنَّمَا » في آيتين إفادةً لجلاء الحكم وتعريضًا بمن أقبل على ما يفنى ويزولُ ، وتلحظُ أنَّ كثرةً من الصُّورِ استُلِبَتْ من عالم الزرع ترغيبًا أو تزهيدًا ، ومدحًا أو ذمًّا ، كما مر بك ؛ لأن التغَيُّرَ في أطوار الزرع واضح ملموسٌ تأكيدًا للمعاني وجلاءً للأغراض وإشباعًا .

وفي الأية الأولى جعل الدنيا على المجاز العقلي محصورةً في خمسةِ أمور ، والتفاخرُ والتكاثُرُ فيه ملمَحٌ نفسيٌّ ، يقابله الإعجابُ بالنباتِ الغض ، وتوزيعُ الجزئياتِ بتناسقٍ مُرَاعًى في الطرفين ، فالتدرُّجُ من منعةٍ خاصةٍ إلى التكاثر يستغرق زمنًا وكذا استواءُ النَّبْتِ حتى يصير حُطَامًا ؛ ولذا جاءت « ثُمَّ »، كما تجِدُ الزمنَ المُوَزَّعَ بدقةٍ وحسابٍ ، فالنباتُ يَمْكُثُ مدةً حتى يَكْتَمِلَ فَيَيْبَسَ ويَصْفَرَّ ، ثم يظل مدة هكذا حتى يصير هشيمًا ، وتَنَوُّعُ حروفِ العطف أدى هذا بكل دقة . وتجد الإيجاز في المشبه حذفًا للأمر السادس وهو الفناءُ ، وإيجازًا في المشبه به من تعديدِ مراحلِ الزَّرْعِ ، وإنْ كان بناءُ الفعل على المضارع يجعله مُشِعًّا مُصَوِّرًا .

وفي الآية التالية توضيحٌ لما أُجْمِلَ في آية « الحَدِيد» ، ربَّمَا لأنه على أمل منتظرٍ ؛ ولذا « أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ» وهنا ماءٌ اختلفت به الحال فقد أُنْزِلَ من السماءِ فاختلط به نباتُ الأرض للناسِ والأنعام فهو سِرٌّ لما تبقى به الحياة وهو الإطعام ثم زينةٌ وجمالٌ ﴿ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ ﴾ فالأرضُ عروسٌ عليها فاخرُ الثيابِ من كلِّ رشية ولون ؛ رمزًا لعديد الألوان ، وتصويرًا لمهرجان الربيع تصويرًا حيًّا ورسمًا مبهجًا مَرِحًا يصل إلى الغلبة ، مع مَلْمَحٍ نفسيٍّ هو الإحساسُ بالغِنَى والزَّهْوِ ، وقد جاءت « حَتَّى» لتصوِّر أَمَدًا مديدًا ومراحلَ مَرَّ بِهَا النباتُ ، ويكونُ الزَّهْوُ والغرورُ البشري ليترتب عليه تلقائيًا

إتيانُ أمرِ الله بهذا التجهيل المخيف ؛ دلالةَ الهلاك الذريع ، ثم تشبيهٌ آخرُ للزَّرْعِ بما حُصِدَ منه دلالةً على إتمام الغَنَاءِ ، ثم تشبيه ثالثٌ «كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ» : جعلِ الأرض بعدَ الهلاكِ كحالَتِها قبلَ غَنَائِها بالزَّرْعِ ، كَأَنَّ ما حدث كان حُلْمًا عارضاً ، أو زيًّا بالياً ، وتجد أنَّ المفعول في (جَعَلْنَاهَا) عائدٌ على الأرض ، والمقصودُ الزَّرْعُ إحاطةً للبلاء ، والمُهِمُّ أنَّ الصورةَ قَدَّمَتْ عديدًا من الألوانِ والمشاهدِ والأزمانِ والحالاتِ المتناقضةِ المحسوسةِ المشاهدةِ لأحوال الدنيا المتغيرة المعنوية .

وفي الآية الثالثة : لم تأت «إِنَّمَا» بل أَمَرَ بضربِ المَثَلِ واقتضب مراحلَ الإنبات مُفَصِّلاً قليلاً في النهاية الشاحبة (فَأَصْبَحَ هَشِيمًا) بدل (حَصِيدًا) و(حُطَامًا) ثم حَقَّقَ ضياعَهُ بأن جعله (تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ) فأضاف عنصرَ الريحِ إلى الصورةِ الغريبة لِتَبْدَأَ بالوَحْدَةِ والالتئام بين الماء والزرع والنماء والخضرة وما توحي ، ثم تَنْتَهِيَ بالبعثرة والحركة العنيفة والتجاذُبِ بين ذَرَّاتِ الهشيمِ وثورةِ الرياحِ ؛ تحقيقًا للضياع أو البداية الحُلْوَةِ والنهاية المُرَّةِ الضائعة في الحياة الدنيا .

أما الآيةُ الأخيرةُ فقد تكون آيةً كالآيات المنثورةِ في الكَوْنِ والطبيعةِ ، في السماءِ والأرض والمخلوقات ، وقد نلمح فيها المَثَلَ كما لَمَحَ الزمخشريُّ ؛ لأَنَّ مراحلَ الحَدَثِ والزَّرْعِ هي مراحلُ ما سَبَقَ من آياتٍ ، بَيْدَ أَنَّ فيها تغييرًا ، إيجازًا من ناحيةٍ ، ومَدًّا للصورة من ناحيةٍ أخرى ، كقوله ﴿ فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ ﴾ ، وهي مرحلةٌ خَفِيَّةٌ لا تراها العيونُ تسبق الإِنْبَاتَ ثُمَّ : ﴿ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ﴾ تصويرًا فنيًا معجبًا ، وكذا ﴿ فَتَرَىٰهُ ﴾ استحضارًا وتشخيصًا . والمهم أنَّ هذا نموذجٌ رائعٌ جَسَّدَ حال الدنيا وانْتَزَعَ من أبرز ما في الكون من سماءٍ وماءٍ وأرضٍ وزرعٍ وألوانٍ وجفافٍ ورياحٍ وحركاتٍ مرئيةٍ وخفيةٍ بيانًا لهذه الدنيا وأنها في تغيُّرِها آيةٌ كهذه الآيات الكونية التي تتحول وتتغير أبدا .

ولذا كان الأداة «الكاف» وكان مَدْخُولُها جزءًا من الصورة، وإن كان من أهمِّ ما فيها لانبناء التمثيل عليه وكونه مسببًا عنه مترتبا عليه ثم لأهميته في ذاته .

مظاهر القهر في الدنيا :

قال تعالى :

- ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ ، ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ ﴾ ، ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ ، ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

وقد خرجت الأمواجُ عن طبيعتها في الطُّوفَان فصارت في ضخامتِها وارتفاعِها وهَوْلِها كالجبالِ ، كُلُّ مَوْجَةٍ كالجبل ، فالطرفان محسوسان والوجه كذلك ، والكافُ وَضَّحَتِ التقارُبَ بين الطرفين ، والموجُ في الآية التالية مُشَبَّهٌ بالظُّلَلِ : جمع ظُلَّةٍ ، وهي ما أَظَلَّ من سَقْفٍ أو جَبَلٍ أو سَحَاب ، في الارتفاع والتراكب والإحاطة ، فقد خرج المشبه عن طبيعته ، وقارب المشبه به وهو الأصل في الصفة ، تصويرًا للهول والعُلُوِّ والضخامةَ ، وفي آية بني إسرائيل انقلعَ الجبلُ من أصله وارتفع وأَظَلَّ بني إسرائيل في تهديدٍ رعيبٍ مُدَبَّرٍ ؛ دلالةً على القُدْرَةِ المقتدرةِ ، فهو ظُلَّةٌ وهو السحاب والغمام ومنه : ﴿ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ وهو مدلول آخر من المدلول العربي للفظ ، ولَمَّا كان هناك بُعْدٌ في العقل بين الجبَلِ وهو مَثَلُ الرسوخ والظُّلَّةِ ، وهي مَثَلُ الحركة والانتقال ، أَكَّدَ التشبيهَ «بكَأَنَّ» بثًا للوحدة في المتباعدين ، ومثله : ﴿ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ والفِرْقُ الجزءُ المتفرِّقُ من البحر في ارتفاعه وعِظَمِهِ وعُلُوِّه كالجبل المنطاد في السماء ، ويَلْفِتُ الخاطرَ هذه العَلاقَةُ التشبيهيةُ الحميمةُ بين الماءِ والجبالِ على بُعْدِ ما بينهما ، أحدُهما من وادي الحياةِ والرَّجْرَاجِ والحركةِ والسيولةِ ، والثاني من عالِمَ الشُّموخِ والثباتِ والصلابةِ والموتِ ، وسيلقاك هذه التشبيهات : ﴿ وَمِنَ

ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ ، ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴾ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ، ترى الجلالَ والدقة والإبداع الرابط بين أكبر مظهرين من دنيا الماء ودنيا الصحراء . على أنَّ الدقةَ في اختيارِ «الأعلامِ» مشبَّهاً للسُّفنِ لا الجبالِ على إطلاقِها ، إذ العَلَمُ الجبَلُ المرتفعُ المستطيلُ ، فالشكلُ بجانب الضخامةِ مقصودٌ في الصورة بالإضافة إلى ما في لفظ العَلَم وهو الجبل المُعْلَم ، من أُنْسٍ به وراحةٍ لرؤيتهِ وطمأنينةٍ لقُربه من الدِّيار ، وكذا الأُنْسُ والأَمْنُ في هذه السفن الكبيرة التي تسير بقَدَرِ الله ورحمته .

وقال تعالى :

في أصحاب الفيل : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ ، وفي عاد : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ ، ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ ، وفي ثمود : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَ‌ٰحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ ، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً ﴾ .

وقال عن المكذبين : ﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ ﴾ وهذه آيات تُشَخِّصُ العذابَ المرعب ، فتقعشر الأبدانُ بذلك أن الانتقامَ الإلهيَّ والقهرَ النازلَ لا تستطيعُ كلماتُ اللُّغَةِ أَنْ توضِّحَ كُنْهَهُ وأَثَرَهُ إلا ما وَضَّحَ القرآنُ ، فأصحابُ الفيل أَصبحوا أثرًا بعدَ عينٍ ، فَشَخَّصَ ذلك بالعَصْفِ المأكول. وعَصْفُ الزرع : حُطَامُ التِّبْنِ ودقاقه ، لم يكْتفِ بجعلِهِ عَصْفاً حتى جَعَلَهُ مأكولاً أكلَتْهُ الدوابُّ وراثَتْهُ إفادةً لتمامِ الهلاك ، أَوْ وَرَقُ الزَّرعِ وقعَ فيه الأُكَالُ وهو الدُّودُ ، فلم يُبْقِ منه باقيةً ، أو كورق الزرع أكلته البهائمُ ، والبلاغة هنا في اجتلاب التشبيه مما يقع تحت الباصرة دومًا في حياة الرَّعْيِ

والزَّرعِ ، ولكن لا يقعُ في الوهم حين خُطُورِ المشبه إلى الذهن إيماءً إلى تفاهةِ هؤلاء وحَقَارةِ شأنِهم مع قوة العذاب العتيد .

وأما عادٌ فانظر ما وَفَّر الأسلوبُ للريح من قوةٍ وأثرٍ جَعَلَ القومَ صَرْعَى كَأَنَّهم أعجازُ نخلٍ خاويةٍ فهي أُصولُ نخلٍ جَوْفَاء فارغةٍ خفيفةِ القَلْعِ والرَّمْيِ مبعثرةٍ في إهمال أو «أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ» مقلوع من مغارسه ، والصورةُ تقتصر على أعجاز النخل ؛ لأنه دائمًا مُلْقًى مهملٌ لا خيرَ فيه ، وكلمةُ «خاويةٍ» و«مُنْقَعِرٍ» تكمل صورة الاستئصال والهلاك بل إن الدَّمارَ لم يقتصر على البَشَرِ ، إن الريح «لا تَذَرُ مِنْ شَيءٍ» بهذا العموم «آتَتْ عَلَيْهِ إلا جَعَلَتْهُ» في تدميرهِ وعدمِ فَنَائِه «كالرَّمِيمِ» مارَمَّ وبَلِيَ وتَفَتَّتَ من عَظْمٍ أو نباتٍ تشخيصًا مخيفًا لعذاب أَمِنَ منه المحمديون . وقَدَّرَ أبو السعود : «ما تذر من شيء قابلٍ للهلاك» ليتواءَم مع قوله تعالى ﴿ فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ .

وأما ثمود : ﴿ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ : كالشجر البالي المتهشِّم والقَصَبِ والسَّعَفِ الذي تَقَادَمَ عليه العهدُ فَوَطِئَتْهُ الدَّوَابُّ وصار حُطَامًا هشيمًا ، وهو صورةٌ غريبةٌ للإزراء والإهمال مع الدمار الشامل .

والغُثَاءُ ما بَلِيَ واسْوَدَّ من عيدان ووَرَق من حِميلِ السيل ، وقد صوَّر المعذبين به مرةً وبالحصيدِ مرةً أخرى دلالةُ الإفناءِ والتدميرِ الشاملِ ، ونرى هنا أن التشبيهَ انتُزِعَ للمعذَّبين من التافه الضائع الذي لا يُؤْبَهُ من الأشياء ، وهي وإنْ تفاوتت ضآلةً وضخامةً وتلاؤمًا بين الطرفين تلتقي عند الإهمال والتفاهةِ ، ومن هذه الأمور المهملةِ جاء القرآنُ بتشبيهاته في العذاب فجعلها لا تنتهي إثارةً وفناءً وإيحاءً وترهيبًا من الكفر والعصيان .

ب – وقال تعالى :

﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ .

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ .

﴿ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ ﴾ .

ومعجزة الله لا تتوقف عند النواميس والعقول :

فعصا موسى تنقلب كما جاء في آياتٍ أخرى حيةً تسعى ، والجَانُّ : ضَرْبٌ من الحيَّاتِ ، وجاءت في مقامٍ خاصٍ هو تدريبُ موسى على رؤيتِها وانقلابِها حتى يَأْنَسَ إليها ؛ ولذا كانت جانًّا ، يعني حَيَّةً تكثُر في البيوتِ لا تؤذي[1] ، بهذا التخصيص ، وتَولّى موسى عليه السلام لهذا الانقلاب من الجماد إلى الحياة المهتزةِ في صورةِ حيةٍ ، ثم كان التعبير بحَيَّةٍ تسعى أمام السحرة ؛ لأنها أخذت شكلا مَهُولاً مفزعًا يَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ ، ولا عبرة ولا التفاتَ بمن جَعَل الجَانَّ هنا وَهْمِيًا من الجِنِّ توهُّمًا وخَبْطاً دون تَثَبُّتٍ .

وأهل الكهف ينامون مُفَتَّحَةً عيونُهم ، فمَنْ يراهُم يَحْسَبُهُمْ أيقاظًا ، فهو تشبيه بليغ « ويَحْسَبُ» إنْ أُرِيْدَ بها التشبيهُ في القرآن جاءت لما بين طرفين من تقارُبٍ شديدٍ كقوله تعالى في غلمانِ الجنَّةِ : ﴿ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ﴾ .

وفي آية عيسى عليه السلام شَبَّهَ ما يسويه من الطين بهيئة الطير ، وهي تشبيهاتٌ يكاد يَتَّحِدُ فيها الطرفان لقوَّةِ الإعجاز وبلوغِ المشبَّهِ درجةَ المشبه به وهو الأصل .

أحداث القيامة :

قال تعالى :

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴾ .

﴿ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴾ .

---

(١) القاموس المحيط ٢١٢/٤ .

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ .

﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ .

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ .

﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ ، ﴿ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً ﴾ .

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ .

﴿ خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ .

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ .

﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴾ .

﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ .

﴿ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ .

وأحداثُ القيامة يقدِّمُها القرآنُ مصوَّرَةً محسوسةً حيةً متحركةً بارزةً شاخصةً في عالَمٍ كاملٍ حافلٍ بالمشاهدِ مَلِيءٍ بعشرات الأوضاعِ والأشكالِ والسِّمَاتِ تُؤَلِّفُ مَلاحِمَ فنيةً آسرةً تتملاها النفسُ والخيالُ ، ويتعقَّلُها العقلُ ، ويستغرق فيها الحِسُّ ، وتتواثب منها الظلال ، إنها سمةٌ عامةٌ في مشاهد القيامة أن تفرغ من عالم الأحياء لا أكوان مجردة ولا حظوظ جامدة ، إنها مشاهد تُقَاسُ فيها الأبعاد ، كما يقول الشهيد سيد قطب ، بالخواطر والخلجات[1] .

والتشبيه يُدْلِي بدَلْوه فالسماءُ بعد الانشقاق والانفطار تنقلب عن طبيعتها فهي وَرْدَةٌ حَمْرَاءُ تسيلُ كالدِّهَان لونًا وسُيُولَةً وهي حمراءُ حُمْرَةً داكنةً غَبْرَاءُ كدُهْنِ الزَّيْتِ مع السيولة ، والدِّهَانُ : ما يُدْهَنُ به أو جمع دُهْن ، أو الأَدِيمُ الأحمرُ كما يرى الزمخشري ، لكن يُرَجِّحُ الأُولى هذه السيولةُ العنيفةُ من جِسْمٍ

---

(١) انظر مشاهد القيامة ص ٣٧ وما بعدها .

ضخمٍ كالسماءِ ، وهي أيضًا كالمُهْلِ : كَدَرِدِيِّ الزَّيْتِ الكَدِرِ ، أو ذَائِبِ النُّحَاسِ لونًا وسُيُولةً ، وتصَوُّرُ هذا في جانب السماء أمرٌ يكاد لا يطيقه عقل .

والسماء على ضخامتها تُطْوَي « كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ » أو السجل الصحيفة كما يطوى الطومار ، ليكتب فيه اقتدارًا وتحكمًا ، إيماءً إلى أنها مقدوراتٌ لقادرٍ جَبَّار مقتدر ، والتشبيهُ هنا داخلٌ تحت التمثيل أو الكناية ؛ وذلك في كل ما يُضَافُ إلى رب العزة من صفات الحوادث إخراجًا لما لا يحيطُ به بَشَرٌ مُخْرَجَ المَحْسوسِ تصويرًا وتبليغًا .

والجبالُ على عِظَمِهَا تخرج عن طبعِها وصلابتِها وتماسُكِهَا وتُسَخَّرُ بيد القدرة دلالةَ الهولِ الرعيبِ فهي كثيبٌ مَهِيلٌ لا يتماسك ، وهي عِهْنٌ مَنْفُوشٌ في الهَشَاشَةِ واختلافِ الصِّبْغِ أو اللون لأنها « جُدَدٌ بِيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتِلُفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيْبُ سُودٌ » فإذا بُسَّتْ وطُيِّرَتْ في الجوِّ أشبهت الصوفَ المنفوشَ إذا طَيَّرتْهُ الرِّيحُ[1] ، والتشبيه هنا مركبٌ خياليٌّ ثم هي تسير كالسَّحَابِ في تمهُّلٍ وَتَريُّثٍ ، وهي أيضًا تختلط وتُلَتُّ وتختلط كالسَّوِيقِ المَلْتُوتِ وهو العجين فتتداخل أجزاؤُها ثم تصير بعد انعدام الجاذبية كالسحاب بطيئًا ثم تتفوق أجزاؤها فتكونُ كالهَبَاءِ منبثًا في التفرُّقِ والتَّلاشِي ، ثم يُحَقَّقُ هذا التلاشي فتكون سَرَابًا ، وهو المناسب لقوله تعالى ﴿ **وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا** ﴾ كالأرض البيضاء المَلْسَاءِ التي لاثباتَ فيها بعد أن كانت مُعْشِبَةً خضراءَ في إزالة البهجةِ وإبطالِ الزِّينةِ وتغييرِ الصورةِ فالجبالُ وقتِ القيامةِ تَمُرُّ بهذه المراحلِ المتتابعةِ حتى تصيرَ كما عبَّرتِ الآيةُ ﴿ **وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا** ﴾ تصير رملاً ثم يُرْسَلُ عليها الريحُ فيُذَرِّيها كما يُذَرى الطعام فيسوي مكانها فلا عوج فيها ولا نُتُوء[2] .

---

(١) راجع الكشاف ٤/٤٨٨ .

(٢) المرجع السابق ٤/٥٥٠ و ٢/٦٩ .

أما البشر فقد صور خروجهم بغتةً في حَشْدٍ كثير وذِلَّةٍ وضعفٍ واختلاطٍ وتَطَايُرٍ إلى الداعي من كل جانب بالفَرَاشِ المبثوث المجذوب إلى النار وهو انجذابٌ لا مَفَرَّ منه كالطبعِ والفطرةِ ، فالوجهُ هيئةٌ لا تُحَدُّ ظَلالُهَا ، والعجيب من انتزاع الصورة من هذا الفَرَاشِ الهائمِ المشدودِ إلى نيران وقادة ، والناسُ في كثرتهم واضطرابهم واختلاطِ أمرِهم كالجَرَادِ المنتشر ، وهو مَثَلٌ في الكثرةِ ، وانتشارُه يُعْطِي هذه الكثرةَ اتساعًا ومساحةً وقد دلَّت الكنايةُ[1] ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ على الذِّلَةِ والمهانةِ تصويرًا حسيًا مؤثرًا . صورتهم في الاضطرابِ والإسراعِ إلى الداعي كصورتهم هم (وهو تشبيه خاص لا عام) وهم يستبقون إلى أصنامهم[2]، والصورةُ ساخرةٌ متهكمةٌ فالتجمُّع والإسراعُ محققانِ في الطرفين ، لكِنِ الذُّلُ واضحٌ في المشبه وفي الكناية بعده ، وهو على النمط الساخرِ في قوله تعالى ﴿ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ فقد سمى أعشاب الصحراء الشائكة جنتين تهكُّمًا وتحقيرًا واقتدارًا . والساعةُ وهي أمرٌ لا يُدْرَكُ كُنْهُهُ تأتي سريعةً كالأمر (كُنْ) فهي في سرعتِها الخارقةِ كلَمْحِ البصرِ؛ تصويرًا للمعقول الغَيْبِيِّ بالمحسوس المَرْئِي الذي يُضْرَبُ به المَثَلُ في السرعة بل هي أقربُ ، وأَجَازَ الكشافُ[3] أن يكون قُربُها عند الله كلَمْحِ البصر عند البشر إذا بالغوا في قُربِ الشيء ، ونَحْوُهُ : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ وهي دلالةٌ شاء الله للعلمِ أن يقتربِ منها ذلك أنَّ الأيام على الكواكبِ تَطُولُ وتَقْصُرُ حَسْبَ قُربِهَا وبُعْدِها وسُرعتِها وبُطْئِها في دورانها حولَ الشمس فيَومُ المريخ يزيد على عشرات المرات من يومِ الأرض ، ويومُ اللهِ لا يعلمهُ إلا هو ، والعَدَدُ هنا تقريبٌ لا تحقيق ؛ ولذا جاء على الصيغة العددية «أَلْف» التي يُرَادُ بها الكثرةَ لا التحقيق .

---

(١) الكشاف ٣٤٤/٤ .

(٢) المرجع السابق ٤٩٢/٤ .

(٣) المرجع السابق ٤٨٢/٤ .

نعيم الجنة :

قدم التشبيهُ لمحاتٍ دالةً لها أثرُها البهيجُ من شُغْلِ الحَوَاسِّ ومنافِذِها والملكاتِ النفسيةِ لدى الإنسانِ وترغيبًا وإثارةً للأشواق لهذه الدار التي يُدَنْدِنُ حولَها المتقون قال تعالى :

﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ ، ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ ، ﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ .

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ .

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴾ .

ونلحظ أن التشبيهَ حِسِّيٌّ صُوِّرَتْ فيه الحُورُ العِينُ مع أنهن قاصراتُ العَيْنِ ، تقابلاً عجيبًا ، باللؤلؤ المكنون في صفاء بياضِه وبراعةِ جمالِه وغُلُوِّهِ وصَوْنه ، وبالياقوتِ والمَرْجَانِ في صفائِهِ ومَلاسَتِهِ وقيمتِه وصيانته ، وبَيْضِ النَّعَامِ مكنونًا في « الأدحى » وهو عُشُّ البَيْضِ قد اشتَدَّ بياضُهُ وحُوفِظَ عليه ، وبيضُ النَّعامِ يُشَبِّهُ به العربُ نساءَهُم ، كقول امرئ القيس « وَبَيْضَةِ خِدْرٍ لا يُرَامُ خِبَاؤُهَا » وقد فَرَعَهُم الأسلوبُ القرآنيُّ جمالاً فأخرجَ التشبيه من الابتذال بالوصف « مَكْنُونٌ » وأنت تلاحظ أن تشبيهات القرآن للمرأة من مثل قوله تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ تَحرِصُ على توفيرِ جَوِّ الصيانةِ والسَّتْرِ ؛ ولذا أعان الأسلوبُ على رسم صورةٍ للحورِ ، فهُنَّ قاصراتُ الطَّرْفِ أَبْكَارٌ ـ لم يرهن إنسٌ ولا جان ـ وهن واسعاتُ العيون في جمال ـ وقد بلغن من الجمال مبلغا يستأثر بالألباب كهذه الجواهر الغالية ، نِيْلَتْ بعدَ عناءٍ ، وكلُّها فتنةٌ وسحرٌ مع الحفزِ والصيانةِ ودعوةٍ إلى الستر حتى في الآخرة فالحِسِّيَّاتُ هنا لها أثَرُها المعنويُّ والأدبيُّ والعقليُّ في التكريم .

وانظر إلى الأطفالِ والغِلْمَانِ فهم حين كانوا (لَهُمْ) أي لخدمتهم خاصةً جعلهم لؤلؤًا مكنونًا فيه جمالٌ وصبيانةٌ ؛ لأن اللؤلؤَ رطبًا أَحْسَنُ وأَصْفَى ،

أو مَخْزُونٌ لأنه ثمينٌ ، وحين لم يَنُصّ على أنهم لأصحاب الجنة جعلهم لؤلؤًا منثورًا في غير نظامٍ ، وفي هذا اتِّباعٌ للحاسة الفنية ، فهنا بهاءٌ وصفاءٌ وانبثاثٌ في المجالس ، لآلئُ متحركةٌ رائحةٌ غاديةٌ ، وأنت تلحظ هنا التناسقَ بلا مغالاةٍ ولا تناقضٍ بين اللونِ والحركةِ والحياةِ والظلالِ المَرِحَةِ .

وتلحظ أنَّ الكافَ دخلت على «أَمْثَال» مشبهًا به بمعنى هيئات فقوّت جانب التشبيه وألحقته بكَأَنَّ ، وجاءت «حَسِبَ» في الأطفال تناسُباً في جزاء الأبرار الذي فصلته سورةُ «الإنسان» وهم سيِّدُنا عليٌّ والسيِّدَةُ الطاهِرَةُ فاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ عليها السلام ، وذلك يقوِّي جزاءَ المتقين أو الخائفين أو الذين آمنوا في باقي الأساليب ، وانظر التلاؤمَ التامَّ في القرآن : قال في الزوجات ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ وقال في الليل : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ تركيزًا على جانب السَّتْرِ والصيانة ؛ ولذا لم يقل وأنتم كذلك ؛ تفويتًا لهذا الجانب وجَعْلَه خاصًّا بالأزواج (لكم - لهن) وأَطْلَقَ في اللَّيل ؛ لأنه يَسْتُرُ الكونَ والأشياء ، ثم انظر كيف يَرْبِطُ الصيانةَ بالنساء ، وكيف يرتبط الهدوءُ والسَّكَنُ والسَّتْرُ في الأذهان باللَّيلِ الذي جعله لباساً . وهو لباس محقق على طريقة التشبيه البليغ القريب الطرفين ، أما الجنةُ مكانُ النعيم فقد صَوَّرَها في السَّعَةِ بالسماءِ والأرض ونَصَّ على العَرْضِ ؛ لأنه أَوْفَى من الطُّول ومبالغةً كقوله «بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَق» فما بالك بظواهرها ، دلالةً على سَعَةٍ لا يُدْرَكُ كُنْهُهَا فهي أوسع حتى مما عَلِمَهُ الناس من الخلق ، والكناية عن السَّعَةِ تفرعت عن تشبيهٍ محسوس .

مشاهد العذاب :

قال سبحانه :

﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ .

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ .

﴿ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ .

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾ .

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلًا ﴾ .

﴿ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾ .

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَـٰبِهِمْ ﴾ .

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ .

وكلُّ ما في الآخرة غيبٌ مكنونٌ له قوانينُه الخاصةُ ولا نعلَمُ منه إلا الأسماء ، وما قَدَّمَهُ القرآن من صور مثيرةٍ على طريق تداعي الفكر سيلاً من المعاني والصور فهذه الشجرةُ المَلْعُونَةُ في القرآن ، والتي كانت فتنةً للظالمين عالَجَها القرآن من ناحيةِ طَعْمِهَا وشَكْلِهَا وأثرها ، فما يُطْعَمُ منها أو ما يسيلُ من ثمرها كالمُهْلِ وهو دردى الزَّيْتِ أو ذائبِ الفِضَّةِ والنُّحَاسِ[1] .

ومن يطيقه وهو يغلي في البطون ، وكيف تتحمله البطون بليُونَتِها وبشريتها ، والغَلْيُ يبلغ حد الفوران كغلي الحميم؟ وكأنَّ البُطُونَ أصبحت قُدُورًا ، ونسأل الله النجاة ، والصورةُ اشتملت على تشبيهين حسيين صَعَّدَا المعنى وهو التعذيب ، فلم يَكْتَفِ بأن جعل طعمها كالمُهْلِ حتى جَعَلَه يَغْلِي وحَقَّقَ غليانَه المُضَّطِرَم فَجَعَلَهُ كَغَلِي الماءِ الحَارِّ في الداخل جيشانًا وتوقُّدًا ، ونعوذُ بالله .

والصورةُ اشتملت على الحركةِ واللونِ والحرارةِ والتوقدِ والإثارةِ ، والكافُ قرَّبَت الطرفين ، بل ربما كان المشبه في العذاب أرقى من المشبه به المعلوم لدينا ، والآية التالية تبدأ بدايةً غريبةً فالشجرةُ تخرجُ وَسْطَ الجحيمِ ، وباللهِ

---

(١) الكشاف ٢٢٢/٤ .

كيف تُجَامِعُ الخُضْرَةُ والنَّمَاءُ جحيمًا وقودُها الناسُ والحِجَارةُ وكيف يتآلفُ الضدان ؟ ثم إنَّ ثَمَرَهَا مِثْلُهَا شاذٌ على الحِسِّ البشري ، فهو أقربُ إلى رُءوسِ الشياطين ، والطَّلْعُ من النخل مستعارٌ لِثَمَارِ الشجر ، والوهمُ يُجَسِّدُ هذا المعنى ولا يكاد ، وحركةُ التصوير ترسم الشناعةَ والقُبْحَ لأنَّ الشيطانَ مكروهٌ مُسْتَقْبَحٌ في طباعِ البشر لاعتقادهم أنه شَرٌّ محضٌ ، ورأس الشيطان وفيه وجهُه جِمَاعُ القُبحِ كلِّه ، كما أنَّ الطباعَ تَتَوَهَّمُ في المَلاكِ الخَيْرَ والجَمَالَ قال الله تعالى على لسان النسوة في سيدنا يوسف ﴿ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ وما رُكِّزَ في الطباع صورةٌ من الواقع والحقيقة[1]، وهذا الوهمي الذي أَدخلَهُ الزمخشريُّ تحت التشبيه التخييلي متوهمٌ عند البشر حقيقةٌ في القرآن لا يعلمه إلا الله ، والسورةُ تقدم وجبةً كاملة من شجر الزقوم ، فهناك ثَمَرٌ وأَكْلٌ وتخَمَةٌ بملءِ البُطُونِ وشُرْبٍ من الحميم ولكنه شربٌ لا ينتهي تمديدًا في العذاب « كشُرْبِ الهِيْمِ » والهِيْمُ الإبلُ المريضةُ بالهُيَامِ ، وهو مَرَضٌ يصيب الإبل تَشْرَبُ فلا تُرْوَى ، جمعُ أَهْيَمَ وَهَيْمَاءَ ، وأجاز الزمخشري أن يكون « الهِيْمُ » الرِّمَالَ[2]، والأولُ أَنسَبُ إيماءً إلى التشبيه بالأنعام في الكثرةِ وطُولِ شُرْبِهَا والحيوانية ، ثم ألست معي أن في إطلاقِ اسمِ الطعامِ والشراب على العذابِ ، ثم تسميته « نُزُلاً » وهو قِرِي الضَّيْفِ فيه تَهَكُّمٌ ساخِرٌ وترهيبٌ واستهزاءٌ ، وكذا إطلاق الماءِ على المُهْلِ يَشْوِي الوجوهَ وتسميتُه إغاثةً فيه هذا التهكُّمُ ، والآيةُ القرآنيةُ : ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ۝ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ۝ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ۝ كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ ﴾ .

يقول الشهيد سيد قطب : « انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ » فهذا هو أمامكم تشهدونه ، وتلك طريقة القرآن في استحضار اليوم الآخر ، كأنه اليوم الحاضر

---

(١) الكشاف ٣٦٣/٢ .
(٢) المرجع السابق ٣٦٩/٤ .

-﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴾- إنه ظل لدخان جهنمُ لا ظَلِيلٍ وَلا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ» ، إنما هو ظلٌّ خانق لا ظل فيه ، وإنما تسميتُه بالظل هنا امتدادٌ للتهكم في قوله ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ فانطلقوا (إنَّهَا): وإنكم لتعرفونها فلا حاجةَ إلى ذكر اسمها ﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ ﴾ كأنه الشجرُ الغليظُ فياللهول : الشرارةُ قَصْرَةٌ فما بال الموقدة كلُّها ، إنه تهويلٌ بالضخامة حقًّا وصدقاً وواقعاً أخرويًّا ، وقد أَتْبَع التشبيه الأول بتشبيه آخر يؤكد الفخامة أيضاً كأنها جِمَالَةٌ صُفْرٌ ، أي جمالٌ صُفْرٌ كُلُّ شرارةٍ كأنها جمل أَصْفَر والشرر التطاير كأنه جِمَالٌ منتشرة[1].

والطرفان مفردان حسيان والوجه كذلك ، والأداةُ الكاف ، وليس المقصودُ المبالغةَ ، وإنما الصدق والمقاربة والتأثير وبيان واقع المشبه ، وهو واقعٌ يتمرد على متعارَفِ البشر ؛ ومن هنا كان التأثيرُ والترهيبُ ، وقد اتبع التشبيه تشبيه آخر يوضح الحجمَ واللونَ والكثرة والتحرك ، فهو جِمَالاتٌ عديدةٌ صُفْرٌ تتحرك في نواحٍ عدةٍ ، وقد تتفق الإبل لونًا أو تختلف ، ولكن الشرط لتحقيق الشبه أن تكون صُفْراً ، وانظر كيف يتحول الشيء إلى ضده فالشجرةُ أصبحت خشباً يابساً يناسب الشرر في ضخامته ، والجمالُ مصدرُ النِّعَمِ ينتقل إلى عالم النار تشبيهاً غريباً نادرًا بعيدَ الطرفين جامعًا بين الطُّول والعِظَمِ والصُّفْرَةِ والحركةِ ، وقد تأثر المَعَرِيّ بهذا التشبيه في قوله[2] :

حَمْرَاءُ سَاطِعَةُ الذَّوَائِبِ فِي الدُّجَى تَرْمِي بِكُلِّ شَرَارَةٍ كَطَرَافِ

والطَرافُ بيتُ الأُدْمِ في العِظَمِ والحُمْرَةِ ، فلم يستطع أن يثبت إلا العِظَمَ والطُّولَ ، وما كان لبشر أن يلم بالأطراف ويجمع المتباعدات ويثير المعاني كالقرآن الكريم ، والغريبُ أنه ما قلَّدَ القرآنَ أحدٌ إلا قَصرَ وَضَؤلَ ، والتمثيلُ في الآية الكريمة ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ ﴾ والذَّنُوبُ :

---

(١) المشاهد ص ٧٣ . (٢) راجع الكشاف ٤/٥٤٤ .

الدَّلْوُ العظيمُ أصلُه في السُّقَاةِ يقسِّمُونَ الماء فيكون لهذا دلوٌ ولهذا ذَنُوبٌ أي نصيبٌ ، فقد جَسَّمَ العذابَ وجسَّدَهُ وجعلَهُ متوالياً بالعَدْلِ بين كفار مكة وكفار الأمم السابقة ، والتشبيهُ والاستعارةُ قدَّمت الصورةَ حيةً مجسدةً مؤثرةً .

وأمَّا الذين يأكلونَ الربا فقد صورهم على طريق القَصْرِ حين يُبْعَثُون من قبورهم متخطبين كما يتخبط المصروع من مَسِّ الشيطان قال الزمخشري على زعم العرب[1]، ولا زَعْمَ بل حقٌّ مُشَاهَدٌ ، ولعل المصاب بداء الهَرَعِ وتَلَفِ الأعصاب كان العرب ينسبونها إلى مَسِّ الشيطان ، والواقع القرآني يؤيده ، وإن كنا لا ندرك إلا آثَارَهُ ، والمقصودُ المقاربةُ لهذا المس من تخبطٍ واضطرابٍ وتشنجٍ وأخذٍ وانفلات يضيع فيها العقلُ ويتأذى منه الجسم ، والصورةُ بعضُها وهمي حسي ، وبعضُها حسي ، والحركةُ غالبةٌ عليها وهي صورة تُرَى في كل زمان ومكان ، ولها وَقْعُها في النفس .

وانظر الصورة الغريبة في الآية الكريمة من المُعَذَّبين يوم القيامة ﴿ وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًا ﴾.

فقد جَعَلَ من الظلمات قطعاً مُجَسَّدَةً من الظلام ، وجَعَلَ وجوههم مغطاةً بها ؛ إخراجاً للذِّلَّةِ والغُبْرَةِ وأثرها في الوجهِ مُخْرَجًا حسيًّا تخييليًّا غريبًا على سبيل التمثيل .

مظاهر الطبيعة في التشبيه القرآني :

قال تعالى :

﴿ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ﴿٦﴾ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ﴿٧﴾ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴿٨﴾ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ﴿٩﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ﴿١٠﴾ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ﴿١١﴾ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ﴿١٢﴾ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ﴾ .

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴾ .

---

(١) الكشاف ١/٥٠٥ .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ .

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ ، ﴿ وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴾ .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴾ .

﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴾ .

﴿ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾ .

وترى في هذه المظاهر كيف هيأها الله بقدرته وحكمته وما يفيده الفعل « جَعَلَ » مسنداً إلى ضمير العظمة ، فالأرضُ مِهادٌ وبِسَاطٌ وفِرَاشٌ والطرفان مفردان محسوسان ، ويجوز أن يكون من تشبيه الهيئةِ : هيئةِ الأرض ممهَّدَةً يتقلب عليها الناس وينامون بهيئةِ الصبيِّ على مهده أو الرَّجُلِ في مِهَادِه وبِسَاطِه وفراشه وهو الواضح من تحليل الكشاف ، [1] وكذا الجبالُ تُمْسِكُ الأرض كما يُشَدُّ البيت الشعر بالأوتاد . والسراج لأهله يستضيئون به ثم أخرج السراج مُخْرجَ الاستعارة في الآية ﴿ وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ للإفادة وحسن الاعتماد ، أما جعل الليل لباسا في الستر والنفع ، والنومِ موتًا في عدم الأثر ، والنهارِ بعثاً كناية عن اليقظة والحركة فهو تشبيهٌ مفردٌ حِسّيٌّ والوجهُ عقليٌّ ، نلحظ القدرةَ المهيمنةَ في التسخير والاعتبارِ ، كما نلحظ التزامِ حذفِ الأداة والوجه ؛ تحققاً في الطرفين ؛ لأنها آية الليل ولا تتخلف ، كما نجد التزام الفعل (جَعَلَ) مسنداً إلى ضمير الجلالة ، مع الجمع بين النَّوْمِ والموتِ وهما متقاربان مظهران مختلفان واقعاً ، وجَعْلِ اليقظةِ بعثاً إيماءً إلى أنَّ النشاطَ والحركةَ دليلُ الحياةِ وأنَّ النومَ بألوانه علامةُ الموت ، وآية الفجر « فيها إيجاز بالحذف يعني الخيط الأبيضَ من الخيط الأسود من سواد الليل والفجر مشبهاً سواد الليل بالخيط

---

(١) الكشاف ٥٤٣/٤ .

الأسود وبياض الفجر بالخيط الأبيض فحذف المشبه في جانب الليل اكتفاءً بما يقابله ودلالةِ السياق عليه مع تقديم المشبه به ففي الآية تشبيهان وطباقٌ ومراعاةُ نظيرٍ وكنايةٌ خفيَّةٌ تحتاج الدقةَ في الفَهْم والعُمْقَ في الفِكْر، وانظر الآية: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾ يلفت الذهن إلى تتبع القمر في منازله ومراحله في رحلة خالدة، وقوله «حَتَّى عَادَ» تعبير قرآني يختصر مراحل جَمَّةً لا يغفلها الخيال والعقل عاد يهيئ لتشبيه دقيق غريب نافذ، إنه كالعرجون القديم وهو العِذْقُ ما بين شماريخه إلى منبته[1]، وإذا قَدُمَ دَقَّ وانْحَنَى واصْفَرَّ وأخذَ هذه الهيئةَ الخاصةَ، والطرفان بعيدان، والمشبه به يَهُزُّ الخيالَ بما له من وَقْعٍ شعوريّ مع الإيماء إلى ضآلةِ القمرِ وضياعهِ في صفحةِ السماء العريضة دليل قدرةٍ خارقةٍ، وقد أراد ابنُ الرومي أن يدخل التشبيه في حسن تعليل فقال:

تَأتِي عَلَى القَمَرِ السَّـارِي نَوَائِبُـهُ   حَتَّى يُرَى نَاحِلاً في شَخْصِ عُرْجُونِ[2]

وقد أخطأه التوفيقُ؛ لأن العرجونَ لا يكون علـى هيئـة القمـرِ دِقَّـةً وانحنـاءً وصُفْرَةً إلا إذا قَدُم وفي القِدَم لَفْتَةٌ إلى ضآلته.

والسفن في البحار كالأعلام والإثارة لا تنتهي مـن جمـعٍ بـين متحـركٍ علـى رَجْرَاجٍ مَهُولٍ وبـين جِبَـالٍ مهيبـةٍ مـن عـالَمِ الصـحراء وهـي مسـتطيلةٌ تحقيقـاً للشَّكلِ والضَّخامةِ؛ وبهذا التأليف بين متناقضين كانت الغرابة والجمال.

الترغيب في بعض الفضائل:

- ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾.

---

(١) الكشاف ١٣/٤.

(٢) الصناعتين ص ٢٥٢.

- ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ ، ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ .
- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

والكلمةُ الطيبةُ كلمةُ التوحيدِ ، وقيل : كلُّ كلمةٍ معروفٍ ، وقد أخرجَ الكلمةَ المعنويةَ وأثَرَهَا الذي طَوَاهُ فجَسَّدَهُ بشجرةٍ مثمرةٍ نافعةٍ مُبْهِجَةٍ للنظر ثابتةٍ راسخةٍ سامقةٍ إلى السماء ، شجرةٍ لها ألوانُها وطولُها وثمرتُها ونماؤُها وظلالُها ، أحاط بها التشبيهُ من كلِّ ناحيةٍ ترشيحاً للتشبيه وترغيباً في الكلمة الطيبة وتأكيداً لأثرها.

« والتصويرُ قَوَّاهُ تصويرٌ مضادٌ للكلمة الخبيثةِ في شجرةٍ شائهةٍ خبيثةٍ بهذا اللفظ الاستعاري المُوْحِي « اجْتُثَّتْ » بهذا اللفظ الموحي بالعُنْفِ والكُرْهُ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ » ـ فهي لا جُذُورَ لها ولا أساس ـ « مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ » ـ تأكيدٌ لضَعْفِ المَنْبَتِ ، والتمثيلُ يوحي بشجرةٍ صحراويةٍ شائكةٍ شائهةٍ في الخُبْثِ والأذى والضَّعْفِ والتهاوي والزوالِ ؛ تجسيدًا معجزًا ترهيبًا وتحذيرًا .

أما التقوى فقد ظهرت في معرضين على طريقة التشبيه البليغ بإضافة المشبه به إلى المشبه إضافةَ محسوسٍ إلى معقولٍ ، والتقوى وهي فلسفةُ الإسلام ولُبُّه ؛ ولذا صوَّرَها على ضَرْبٍ من الإدماج والتقريبِ باللباسِ والوقايةِ والحمايةِ والسَّتْرِ بالزاد في حِفْظِ النفسِ وإبقاءِ الحياةِ والطمأنينةِ وهما من عُمُدِ الحياة مع تصوير الاستمرار ، إذ اللباسُ والزَّادُ باقيان ما بقيتِ الحياةُ .

أما وَحْدَةُ الصف والدِّقة في اختيار البُنيانِ رمزًا لمعاني شتى فقد سبق ولا يخفى[1].

---

(١) راجع الكشاف ٤/٤١٨ والتعبير الفني ص ١٩٣ للدكتور بكري أمين .

التشبيه في النواهي :

قال الله تعالى :

- ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ .
- ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ .
- ﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ .
- ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ .
- ﴿ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ .

والتشبيهُ في القتل يحملُ من التبشيع والتفظيع ما به يَجْعَلُ قتلَ نفسٍ واحدةٍ كفناءِ البشريةِ كلِّها ، وهذا شيءٌ لا يتحمَّلُه عقلٌ ؛ ذلك أنَّ إزهاقَ الرُّوح وتحطيمَ الهيكل البشري تَعَدٍ على حق الخالق المحيي المميتِ وإهانةٌ لما كَرَّمَ اللهُ وجسارةٌ على سِرِّ الحياة في الإنسان ، فالواحدُ كالجمع بما يدلي به من حُرمةٍ وكرامةٍ على اللهِ[1] ؛ ولذا كان من أَحْيَا نفساً أوشكت أن تموتَ إنقاذاً مَثَلاً كأنما بَثَّ الرُّوْحَ في سكان هذا الكوكب .

وإنه لتصويرٌ رهيبٌ لجانبي الشر والخير معًا له أسرارٌ تَدِقُّ حتى تَخْفَى ، والآية التالية تمثيلٌ وتصويرٌ لما ينالُه المُغْتَابُ على أقبح وَجْهٍ وأفحشِهِ ، وفيه مبالغاتٌ شتَّى ، منها : الاستفهامُ التقريريُّ التوبيخيُّ المثيرُ ، ووصلُ غايةِ المكروهِ بالأخ المحبوبِ طباقاً معنويًا أو شبه طباق وإتمام التمثيل على أحسن وجه فلم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان حتى جَعَلَه أَخَاه ، ولم يقتصر على أكْلِ لحم الأخ حتى جَعَلَه مَيْتًا ، والاقتصار على إثبات الكراهية

---

(١) انظر الكشاف ١/٤٨٧ .

المستقرة في الطباع؛ لذلك فهو إثبات هذا المعنى للمشبه أيضاً وهو الاغتياب، وقد جاء التمثيلُ ضمنيًّا مركباً يُفْهَمُ من السياق وما أشبهه بالتشبيه المرشح[١].

وفي الآية: ﴿ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ وهو تشبيه ضمني للصوتِ العالي النافرِ بصوتِ الحمير بطريقِ اللُّزومِ والتأكيدِ المضاعف، والحمارُ مَثَلٌ في الذم والشتم والنِّفارِ والاستقذارِ، ونُهَاقُ الحَمِيرِ مَثَلٌ في الكراهية والبُغْضِ، ولذا ورد في الحديث أن الحمارَ يَنْهِقُ إذا رأى شيطاناً، والبراعةُ في هذا الجمع (الحَمِيرِ) وتخييل أصواتِها متآزرةً في مظاهرةٍ بغيضةٍ تُصِمُّ الآذانَ وترسب النفورَ وتحقِّقُ الغرض.

والآية: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ والغرضُ النهيُ عن نَقْضِ الأيمانِ بعد توكيدها والأمرُ بِبِرِّها والوفاءِ بها، واستعمالُ النَّقْضِ في الأيمان استعارةٌ، ثم جاء التشبيهُ على سبيل الترقي والترشيح، وقَدَّم صورة غريبةً لامرأةٍ لا لرَجُلٍ، ثم هي امرأةٌ مَخْبُولةٌ أحكمت غَزْلَها وأبرمته، ثم أنحت عليه نقضا ونكثاً، والصورةُ الحسيةُ يتابعها الخيالُ ويصل إلى مبعثِ النَّكْثِ وهو السَّفَهُ والغَبَاءُ وخِفَّةُ العقلِ، والعجب أن نُسِبَ هذا العملُ لامرأة لم يُذْكَر عملُها الغريب تجهيلاً وتسفيهاً، والصورةُ من الواقع العربيِّ الصحراويِّ، وهي أيضًا مستمرةٌ إلى اليوم، وهذا معجز، وسواء كان المَثَلُ تخييليًّا أم حقيقيًّا كما رأى بعض العلماء فهو واصلٌ مداهُ في الترهيب من نَقْضِ أَيْمَانِ البيعة[٢].

وآخر الآيات لمن يتزوج أكثر من زوجةٍ، عليه بالعدل ما استطاع، وقد شبه من ظُلِمَتْ من الزوجات ولم تنل حقَّها الزوجيَّ الشرعيَّ بالمُعلَّقَةِ وهي التي ليست بذات بَعْلٍ ولا مطلقةٍ وأتى «بالكاف» لتقارب الطرفين، وفيه ضربٌ

---

(١) راجع الكشاف ١٩٣/٣.

(٢) المرجع السابق ٤٩٢/٢

من التوبيخ على ما اجتنابهُ ميسورٌ . ويقول القـرآن في جانـب أمهـات المـؤمنين عليهن السلام :

- ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ .

والآيات لوحةٌ مشرقةٌ مليئةٌ بالحركةِ والصورِ والصوتِ واللون ، فيها تقريرُ ما هو واقعٌ ونهيٌ عن غير واقعٍ والمرادُ سِواهُنَّ مِنَ النساء تعويضًا وجمالاً في الدعوة وسياسةً في الترغيب والتأثير ، ونظيرهُ في القرآن كثيرٌ ، وقد سلب التشبيه أولاً مع عقده عقلاً ﴿ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ ثم نهى عن تبرج الجاهلية ، والتشبيه بليغٌ حُذِفَ منه المشبه « تَبَرُّجاً كتبرجِ الجاهليةِ » فالمشبه به مؤكد للمشبه ، والتصوير يستغِلُّ المرصودَ في الذاكرة والخيالِ عن مهازلِ الجاهليةِ تنفيرًا ؛ ولعل ذكرَ الأُوْلَى إيماءٌ إلى جاهلياتٍ ثانيةٍ وثالثةٍ ولا أدرى أين نحن الآن من هذه الجاهليات ، والله أعلم.

النور في التشبيه القرآني :

قال تعالى :

- ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .
- ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ .
- ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ .

ولفظة «نور» ذكرت في القرآن ثلاثة وأربعين مرة مرادًا بها النور الحسي أو المجازي المعنوي عن الهُدَى والحق والمعارف والقرآن والنبي ﷺ، أو على سبيل التشبيه كالآيات السالفة، فمعنى قوله «وسِرَاجاً مُنِيراً» أنه تشبيه المصطفى ﷺ في تجليته ظلمات الشرك واهتداء الضالين به أو تنويرِ البصائرِ بنور نبوته ﷺ كما بعد السراج نور الأبصار، ووصفه بالإنارة لأن من السراج ما لا يضيء إذا قل سَلِيْطُهُ ودقَّتْ فَتِيلَتُه فكأن (مُنِيرًا)، وقد تطور السراج وبقيت وظيفتُه، واحترسَ القرآنُ بالوصف «مُنِيرًا» فهذا الوصف ثابت يفوق ما نعرف عن السُّرُجِ والمصابيح.

ولعلك تلمح أنه جمع له الإضاءة الممثلة في السراج والإنارةَ ليكون له الكمالُ في الهداية من الناحيتين جميعا ﷺ، والقرآنُ جعله الله نورًا في الهداية وهي أمر لازم له وآية بينة لا تتبدل كما يدل الفعل (جعل)، وحذفت الأداة على طريقة القرآن فيما قرُب طرفاه ثم تحقق الوصف في الطرفين على تقارب شديد.

وفي آية النور: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

جعل الزمخشري النورَ مجازًا عن الحق، والأصل ذو نور، أي صاحبُ نور الكون، أي الحق، وأضافه إلى السموات والأرض دلالةً على سَعَة إشراقه، أو المراد أهل السموات والأرض، ثم حقق وصفه بالصفاء والبريق وأنه نور متضاعف قد تناصر فيه المشكاة والزجاجة والمصباح والزيت[1].

واستشف سيد قطب ظلال الأسلوب وآثاره النفسية والأسلوبية، فوضح أن الكون من خلال القراءة يسبح في نور هادئ لطيف في قدسية وجلال وجمال، وكثير من المفسرين على أن المعنى: الله منور السموات والأرض بأنوار حسية كالشمس والقمر والنجوم أو معنوية كالقرآن والملائكة، ويوضح الإمام

---

(١) الكشاف ٣/١٩٠، ١٩١.

أبو الأعلى المودودي أن المراد بالسموات والأرض في التعبير القرآني (الكـون)، وأن المفهوم الحقيقي للنور وهو ما كان ظاهراً بنفسه مظهرًا لغيره ، أنـه شـعاعٌ سريع ينعكس على شبكية العـين ، وكـل كلمـة مـن كلمـات اللسـان الإنسـاني تستعمل لله تعـالى إنمـا تسـتعمل باعتبـار مفهـوم الإنسـان المطلـق لا مـدلولها الحسي المادي ، فالنورُ مرادٌ به سبب الظهور وقد شبه الله نفسهُ المصباحَ والكونَ بالمشكاة والستر الذي دارى فيه الحق تعـالى نفسـه بالزجاجـة وهـو سـتر شـدة الظهور لشدة إمعانه وسعته وشموله وإحاطته فعجزت الأبصار عن إدراكـه لأنها تدرك المحدود المتغير ، وقد حقق النور بالحـديث عـن الشـجرة والزَّيـت ، ثـم وضح أن النورَ صفةٌ كالعلم والقدرة ، فهو مصاحبها ولكن قيـل لـه النـور لبيـان كماله فيه كما يقال للكامل في الكرم ويعني هذا كما هـو معلـوم التجـوز علـى طريقة المجاز العقلي ، وهذا الأمر لا يخرج كثيراً عن آراء المفسرين وإن أجاد العرض[1]، وبعضهم يرى أنه من المتشابه ، ويرى سيد قطـب أن مـا يتصـف بـه المـولى سـبحانه مـن صـفات الحـوادث إنمـا هـو تخييـل بيـاني خرجـت فيـه المجردات ما لا يدركه الوهم في معارض حسية تناسب العقل البشري تصـويرًا وتخييلاً دون تشبيه بل يترك ظلالا عميقة في النفس البشـرية وهـي طريقـة مـن طرائق التصوير الفني في القرآن[2] .

وهو ينحو منحى العَلِويِّ في «الطِّرَازِ» الـذي تـأثر الزمخشـري في بعـض مواقفه من الآيات المتشابهة فجعله تخييلاً . وبعض المدققين يرى أن الله تعـالى منور السموات والأرض ، وأن نوره في قلـب المـؤمن وهـو الإيمـان والوحدانيـة وتوفيقه للهداية ، كنور المصباح الخاص نقله ابنُ تيميـة وابـنُ القـيم عـن بعـض الصحابة رضي الله عنهم ورجحه ، وبكل ما سـبق لا نقـول إننـا اسـتوفينا تمامًـا كلَّ تشبيه في القرآن بل نعترف بأننا تركنا نشرات هنا وهناك مكتفين بنظائرهـا

---

(١) راجع تفسير سورة النور ص ١٩٩-٢٠٢ .

(٢) راجع التصوير الفني ص ٧٣ .

كهذه الملازمة (كذلك) و(كما) وقد تكررت كثيرًا في القرآن بلفظ (مثل) رابط بين حالين أو موقفين أو حدثين أو زمانين أو مكانين وهي في الهيئات لا في المفردات ؛ ذلك أن القرآن يقرر أمرًا عجيبًا أو موقفًا ، ثم يربطه بنظيره البعيد عنه زمانا أو مكانا أو موقفا كقوله تعالى في معرض آياته الكونية .

- ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾ (الأنعام:١٠٥).
- ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ (الأنعام:١٠٨) .
- ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ .

وقد تكررت (كَذَلِك) عشر مرات في الأنعام وتكررت (كما) ثلاث مرات ، وتنفرد عن كل تشبيه بغرابتها وجذبِ الانتباه إليها وقوةِ مدلولها ونكتفي بالآية :

- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ (الأعراف:٥٧،٥٨) .

وانظر إلى ربط التشبيه بين أمرين غريبين وكيف نقل الآية الطبيعية لحياة النبات من رياحٍ تحمل سَحَاباً ثِقالاً ، تساق إلى أرض ميتة تصب فيها مياهها فتخرج كل الثمرات بما يملأ القلب جلالاً وهيبة وعجباً ، يقول : مثلُ ذلك الإخراجِ بعدَ عَدَمٍ تَخْرُجُ الموتى ، فجعل المحسوس المرئي دليلاً على الآتي الغيبيّ ، والآية التالية مثل ذلك التصريف وهو تنويع النبات بنوع البيئة طيبًا أو خبيثًا نعرف الآيات لمن يشكر وهي الطريقة القرآنية في الربّْطِ بين متباعدين وإخراجِ الخفيٍّ في معرض الجلي وشَغْلِ منافذ الحس وطاقات الإنسان بقَدْرٍ يجدد نشاطها ويمنعها دون أن يرهقها أو يثقل عليها ، وسبحان الله يعلم سياساتِ النفوس .

لقد طُفْتَ بخصائص التشبيه من خلال البحث وأدركتَ كيف يجعل التصوير حيًّا دافئًا يمر بوسط حي في تلاؤم عجيب وكيف ينتزع الصورة من الكون أو الطبيعة ثم يفصلها على نحو لا يتكرر ثم يظل حيًّا أبدًا ، ورأيت كيف كان عالم النبات معرضًا اتفق نوعا واختلف تكوينًا وصياغة اختلافًا يناسب المقامات إلى ما قد يكون بينها من الاختلاف ما بين المؤمن والكافر والمنافق ، بل صفوة الخلق عليه الصلاة والسلام والمؤمنون معه ، ورأيت كيف تسوى الصورة من العوالم المهولة كالصواعق والرعد والبرق والريح الصَّرْصَرِ والسراب في الصحراء والظلمات في البحر اللُّجي ، فأنت تتفاعلُ مع أكبر الكائنات وتنبهر في قهرها على نحو غريب .

ورأيت الدقة في تحديد الصورة وانتقاء كلماتها بما لا يغني عنها بديل . سواء كانت التشبيهات حسية أم عقلية أم تخييلية مركبة أم وهمية اعتبارية أم دمجاً بين ذلك وسواء كانت تمثيلاً أم تشبيهاً متعدداً فإن الإيجاز في الصورة دائماً بحذفِ شيء والكنايةِ عنه أو حذفه المشبه مرة واحدة ، هذا الإيجاز بالإبقاء على قليل من الألفاظ يجعلها متعة كالنجوم ، وقد يعين التشبيه ألوان بلاغية أخرى تقدم وضعاً جديداً معجزاً يمثل نماذج خالدة نراها دوما ويفرع جزئياتها من الكون المحيط بنا ، هذه الجزئيات قد تكبُر كالريح والرماد والبحر والظلمات وقد تَضْؤُلُ كالفراش والجراد ، وكلٌّ في مقامه مهولٌ يبين سطوةِ الجبار وقهرَه أو رحمته ورضوانَه ، يتفق ذلك في تشبيهات الدنيا أو الآخرة فهي حياة جائشة كاملة تنبض بها الآيات تحس بسريانها ودفئها ، فهنا تصوير الحركات والسكون والألوان والأجراس والظلال بدقة غريبة وهندسة وقوانين كقوانين الحياة .

ثم قد رأيت الدلالة القرآنية الخاصة للتشبيه البليغ وأدوات التشبيه والفروق بينهما على نحوٍ يضيف جديداً للدرس البلاغي .

كما قدم القرآن كلَّ ألـوان التشبيه مركـزاً على التمثيـل القصصـي ، ورأينـا تناسق التشبيهات جميعاً ـ على تفرقها ـ واتفاقها في معالجة شيء من كل جوانبه أو رسم ملامح خاصة وغير ذلك مما أثير خلال هذا البحث الجديد الذي يمثل بعون الله ثورةً جديدةً أرجو أن تجد منك جَنَّةً بربوة تؤتي أكلها ضعفين ، والله يوفقنا ويؤيدنا ويهدينا لخدمة قرآنه وصراطه المستقيم وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلَّى اللهُ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

أستاذ دكتور

صَبَّاح عبيد دراز

محتويات الكتاب